د،مهتدعمارة عندماأمببخت فراه الاستخارة الاستخارة المالية الما



عندماأستخت فَوْصَ الْمُثَالِثُونِيَّةِ . .

الطبعشة الأولحث ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

جيست جسته توق الطسيع مستفوظة

#### ۵ حارالشروقس استسهاممالنت ترعام ۱۹۶۸

القاهرة: ٨ شارع سيبويه المعرى درايمة المدوية مدينة نصر ص.ب : ٣٣ البالوراما دائليقون: ٤٠٢٣٩٩٩ ـ فاكس: ٢٣٠٥٦٧ (٠٠) بيروت: ص.ب : ٢٤٠٨ ـ مالف: ١٩٨٥ ٣١٢٢ ٨

لاكس: ١١٧٧٦٥ (١٠)

# د.محسّدعمارة

# عندماأصبَحَت وفي المنافقة والمنافقة والمنافقة

دارالشرمة\_

•	
	•

# مقريت

كان القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى ، نقطة تحول فى قيام مصر العربية ، واكتمال قسمة العروبة فى نضج وحسم لهذا الوطن الذى فتحه العرب المسلمون على عهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب .

فقى ذلك القرن ، بلغت حركة التعريب ذروتها ، حتى إن كتب العبادة والصلوات فى الكنيسة المصرية قد اتخذت من العربية لغة لها كى يفهمها المصلون! 1 . . فكان ذلك تأريخًا لتعريب المعقل الأحير ، الذى استجاب لهذا الطور الجديد من الأطوار الحضارية ، التي قبلها وتفاعل معها وانخرط فيها ذلك الموطن ، الذى تضرب حضارته فى أعمق أعهاق التاريخ . . فأصبحت مصر العربية . . بعد مصر القبطية . . وبعد مصر الفرعونية . . صفحة جديدة ومجيدة فى التاريخ المتصل للشعب المصرى . .

ومنذ ذلك التاريخ ، استطاع التاريخ .. ويستطيع ... أن يتحدث عن المجتمع المصرى العربى ، وليس فقط عن القبائل العربية التي هاجرت إلى مصر منذ الفتح . وأن يرصد حركة الأدب المصرى العربى : شعرًا ، ونثرًا ، وحكيًا ، وأمثالًا . والفكر المصرى العربي : فلسفة ، وكلامًا ، وفقهًا ، وتشريعًا ، وتفسيرًا ، والفكر المصرى العربي : فلسفة ، وكلامًا ، وفقهًا ، وتشريعًا ، وتفسيرًا ، وحديثًا ، وتاريخًا ، وتقويهًا للبلدان . . إلخ . . إلنح . . وأن يتأكد من الميلاد والاستواء لذلك المزيج الجديد ، في العادات والتقاليد والانحلاق ، الذي جاء ثمرة تفاعل الميراث المصرى بالقيم العربية الإسلامية الشابة والفتية . .

وأيضًا . . فإن ذلك القرن ، قد شهد أمرًا جديدًا وحاسبًا على الصعيد

السياسى ، فيها يتعلق بعلاقات مصر بساقى أجنزاء الإمبراطورية العربية الاسلامية . .

فمنذ أن فُتِحتُ مصر ، عاشتُ مجرد ولاية تتبع عاصمة الخلافة : المدينة حينًا ، والكوفة حينًا ، ودمشق حينًا ، ثم بعد ذلك بغداد . . ولكن حركات الاستقلال الجزئى والذاتى ، التى عرفتها البلاد المصرية على عهد الدولة الطولونية (٨٦٨ الجزئى والذاتى ، التى عرفتها البلاد المصرية على عهد الدولة الطولونية (٨٦٨ ١٩٥٥ م ١٩٥٩ م ١٩٣٠ م ١٩٥٥ م ١٩٥٩ م ١٩٠٩ م ١٩٠٩ م ١٩٠٩ م ١٩٠٩ م ١٩٠٩ م

وعلى الرغم من أهمية هذه الحقيقة ، التي يجب أن تستلفت الأنظار المتأملة في حياة المجتمع المصرى العربسي في تلك الفترة ، فإن الأمر الذي حدث للأسف مو أن معالم حياة المجتمع المصرى في تلك الفترة ، لم تلق من المبحث والدرس ما تستحقه الفترات الحاسمة في تطور الأمم ، ذات التاريخ الطويل والمجد العريق .

ولقد وقفت خلف هذا الإهمال أو الإغفال أسباب كثيرة ، لعل في مقدمتها :

١ - أن حركة التأريخ للفكر العربى والمجتمعات العربية ، قد اهتمت أساسًا بالتأريخ للعواصم . . وبخاصة دمشق وبغداد ، على عهدى الأمويين والعباسيين فظفرت هاتان العاصمتان بها فيهها من فكر وحضارة بها تظفر به الآن عواصمنا ، من عناية واهتهام . وكان حظ الأقاليم الأخرى برغم الأهمية الحضارية لبعضها ذلك الإهمال الذي يشكو منه ريفنا اليوم ، عندما ينظر إلى العواصم الكبرى المحظوظة ! ا .

٢ - أن مصر ، عندما أصبحت " عاصمة " ومستقرًّا للخلافة في القرن الرابع

المجرى ، كانت الخلافة فيها يومشذ فاطمية شيعية إساعيلية . وبعد أن ذهبت الدولة الفاطمية ، وقامت الدولة الأيوبية ، عاد المذهب السنى كى يصبح مذهب السلطة الحاكمة ، فتعرض النظام الشيعى ـ الذى حكم مصر زمن الفاطميين ـ إلى نقد وتجريح من المفكريين والمؤرخين السنيين . والأهم من ذلك ، أن مصر ومجتمعها وحضارتها وإنجازاتها قد تعرضت هي الأخرى من هولاء المفكريين والمؤرخين إلى مواقف تراوحت بين النقد المظالم أو التشويه أو الإهمال والإغفال . . ومس الحضارة ، ومصر الفكر والعمران ؛ لأن الذين أرخوا لفترتها تلك كانوا لا يتعاطفون مع المذهب الفاطمي والعمران ؛ لأن الذين أرخوا لفترتها تلك كانوا لا يتعاطفون مع المذهب الفاطمي الشيعي والنظام السياسي الذي أقامه بمصر في ذلك التاريخ ، أو يقفون منه ومن أيديولوجيته موقف الرفض والعداء .

ومن هنا ، تأتى أهمية هذه الدراسة التى نقدمها عن المجتمع المصرى في العهد الفاطمى . . أهميتها لإنصاف الذين أنجزوا ذلك البناء الحضارى والسياسى الذي شهدت البلاد يومئذ . . وأيضًا . وهو الأهم التكون نقطة البدء في تاريخ مصر العربية العدما أصبحت عربية حقًا ، بالمعنى الحضارى ، لا بالمعنى السياسى فقط التكون نقطة البدء هذه واضحة المعالم ، متسقة الملامح ، مبرَّأة من ذلك التشويه الذي حوَّل صفحات عجدة من حياة مجتمعها ، إلى ركام من الأحداث والتصرفات والمراسيم والقوانين التى تتخذ مادة للسخرية والاستهزاء!!

وإذا كان القارىء سيرى في فصول هذه الدراسة ما هو جديد تمامًا ، وما هو خالف بالكلية لما تواضع عليه كثير من الذين نظروا في أحداث تلك الفترة من حياة مصر ، فإن الفضل في ذلك إنها يعود بالدرجة الأولى إلى المنهج العلمى الذي التزمنا استخدامه في دراسة هذه الفترة ؟ فهو الذي يفسر لنا أمورًا حسب البعض أن لا تفسير لها . . وهو الذي جعل لبناء القاهرة ، مثلاً ، ولموقعها كللك معنى وفلسفة تتعديان الدلالات الظاهرية التي لم يبصر سواها الكثيرون . . وباختصار: إنه المنهج الذي يضع يدنا على الحقيقة ، ويعطى عقولنا الفرصة كبي تتأمل الإنجازات الحقيقية لهذه الأمة ، حتى تتزود بها هو ضروري لمواصلة الطريق . .

فبمقدار نجاح هذه الدراسة في الكشف عن معالم حياة المجتمع المصرى ، في الفترة التي بدأت فيها عروبة هذا المجتمع في النضج والاستواء ، وبمقدار ما ترد هذه الفصول إلى هذا الشعب الاعتبار بتقييمها العلمي لإنجازاته في تلك الفترة ، يكون الرضا الذي نستشعره لبلوغ الهدف الذي توخيناه من وراء هذه الصفحات .

دکتور محمسد عمارة

٨

# الفعرّ الغفر الفعرة المغزى الحضارى لنشأة القاهرة

دراسة عن ارتباط نشأة القاهرة بعروبة مصر .
 وعودة الدور القيادي إليها في المحيط العربي .
 وفلسفة المكان الذي قامت فيه . . وما ترمز إليه
 وحدة العواصم من وحدة في التاريخ .

#### الت اهرة ... فلسفة المكان

ليس بغير التجاوز ، والتجاوز الشديد ، نستطيع أن نسلم بأن عمر عاصمتنا القاهرة الآن هو ألف عام فقط لا غير ! ا وعلى الرغم من أن شعبنا كله ، لا شعب القاهرة وحدها ، بل كل الشعوب التي تمثل القاهرة بالنسبة لها شيئًا ذا قيمة ووزن في محيط التحرر والتطور والتقدم ، قد اتخذت من سنة ١٩٦٩م عاما للاحتفال بالعيد الألفى لبنائها وإنشائها ، فإن هذا التاريخ الذي اعتدنا أن نحدد به بدء ميلادها \_ (سنة ٩٦٩م ) \_ وهذه السنين الألف التي درجنا الآن على اعتبارها عمرًا لها ، إنها هي «حقيقة » تاريخية لابد وأن تناقش ، وخاصة في مثل هذه المناسبة ، وفي هذا المقام بالذات .

وبادىء ذى بدء ، فإن هدفنا من وراء جلاء هذه الجزئية من جزئيات الحقائق المتعلقة بتاريخ عاصمتنا ، ليس تصحيح الرقم الذى بلغته من عمرها المديد ، ولا هو تقديم وجهة نظر متميزة وجديدة فى رقم من الأرقام التى تحفل بها كتب التاريخ ، بقدر ما نستهدف إبراز حقيقة هامة فيها يتعلق بعاصمة الوطن الذى نعيش فيه ونخلص فى حبه والولاء له ، تستطيع أن تمثل بالنبة لنا المنظار الذى نفضل النظر من خلاله لتاريخ بلادنا ، والزاوية التى نميل إلى أن نرى منها التطورات والمراحل والحضارات التى مرت على مصر ، والتى شهدها وساهم فى بنائها وبلورتها أجدادنا منذ أقدم عصور التاريخ . . وهما منظار وزاوية نفضل استخدامها فى الرؤية ، ونحن ندرس تاريخنا القومى والوطنى لمجتمعنا العربى

ذلك ، أنه إذا كنا قد جعلنا من سنة ١٩٦٩م عام الاحتفال بالعيد الألفى

لإنشاء مدينة القاهرة ، على يد القائد جوهر الصقلى ، الذى فتسح مصر قائدًا لجيش الخليفة الفاطسى المعز لديس الله ( ٣٤١ - ٣٦٥ هـ ، ٩٥٧ - ٩٧٥ م ) ، حيث وضع أساسات أبنيتها في يوليو سنة ، ٩٦ م ( سنة ، ٣٥٨ هـ ) على مساحة مربعة يبلغ طول كل ضلع من أضلاعها ألفا وماثتى ياردة (١) ، فإننا يجب أن نعلم أن إقامة هذا البناء لم يكن بدء ميلاد هذه العاصمة ، كما أن الموقع الذى أقامها عليه جوهر لم يكن اختيارًا مطلقًا من جانب هذا القائد الفاطمى الكبير .

فمنذ أن قام في مصر الفرعونية حكم الملك العظيم " مينا " ، الذي وحد شمال البلاد مع جنوبها ، وبني لها عاصمتها الجديدة " منف " ( ممنيس) في نحو سنة ، و ٢٠ق. م ، نستطيع أن نقول إن كل أنظمة الحكم التي تعاقبت على مصر ، والتي أراد أصحابها أن يكونوا قريبين من روح هذا الشعب أو ملتحمين بهذه الروح ، قد جعلوا من هذه العاصمة ذاتها ، أو من إحدى ضواحيها ، أو من المناطق التي أصبحت أمتداداً لها ، العاصمة التي تحكم منها البلاد ، بحيث نستطيع أن نقول إن جميع العواصم التي خفق لها قلب مصر ، والتي منحها الشعب حبه وولاء وإنها كانت بمثابة تطورات مستحدثة ، وصور متجددة لتلك العاصمة التي بناها " مينا " منذ أكثر من خمسة آلاف عام .

وإذا كانت الإضافة ذات القيمة ، التي نسعى إلى تقديمها هنا من خلال إثبات هذه الحقيقة ، إنها تتلخص في أن وحدة العواصم المصرية إنها هي صنو لتجددها وتطورها وتعددها ، بقدر ما نجد أن تعدد المراحل التاريخية والحقب الزمنية والأطوار الحضارية التي مرت بهذه البلاد إنها هي صنو لوحدة تاريخ هذه البلاد ، وصمود شخصيتها الأصيلة المتطورة لكل المحن والأحداث والتغيرات التي رماها بها الأعداء منذ تاريخها القديم ، إذا كانت هذه الحقيقة البسيطة ، والعميقة في ذات الوقت ، هي ثمرة وجهة النظر التي نجتهد لعرضها وإبرازها بين يدى هذا

<sup>(</sup>١) ستانلي لينبول (سيرة القاهرة) : ص١٢٢ ، ١٣٤ ، تىرجمة د. حسن إبراهيم حسن ، ود. على إبراهيم حسن و إدوارد حليم . ط ، القاهرة سنة ١٩٥٠م،

البحث ، فالأمر المؤكد أنها حقيقة وإضافة تستحقان منا وقفة تضمن لهما الوضوح والجلاء والإبراز ، وإن يكن الحيز الذي نسوق في إطاره هذا الحديث إنها يدعونا إلى تكثيفها في عدد محدود من النقاط :

• العاصمة المصرية القديمة ، التي بناها « مينا » قبل ميلاد المسيح بنحو ، و ٣٤ عام ، كان موقعها على الففة الغربية لنهر النيل ، اللي قبل إن المينا قد حول مجراه يومئل كي يبنى لمصر هذه العاصمة ، التي تطل منها السلطة المركزية على الوطن الملي بنيت وحدته منذ ذلك التاريخ . وحول « منف » (مفيس) هذه ، امتد العمران على مر المزمن ، واتسعت البنايات ، وتفرعت الضواحي ، وانتشرت من حولها الآثار ، وبنيت الأهرامات : أهرامات مقارة ، ودهشور ، وبشت ، وميدوم ، وهوارة من الجنوب ، وأهرامات الجيزة من المشال . وموقع هذه العاصمة القديمة الآن ، على وجه التحديد ، مدينة الليدرشين وقرية « ميت رهينة » ، جنوبي الجيزة ، وعلى الضفة الغربية لنهر النيل ، في مقابل ضاحية « حلوان » .

• شم جاء حين من الدهر ، اتخذ فيه الغزاة الأجانب ، وبخاصة الهكسوس ،
لصر عاصمة أخرى غير لا منف ، وأصاب هذه المدينة الكثير من الإهمال ،
وعدت عليها عوادى الأيام . ولكن هذا الموقع وهذا المكان ظلا بالنسبة لهذا الوطن
القلب والعاصمة التي يمنحها الناس المحبة والود والولاء . وعندما امتد عمرانها
عبر النيل ، نجدها تبعث مرة أخرى في صورة ذلك الامتداد الذي تمثل في تلك
المدينة ذات التاريخ الغامض ، والتي وجدها الفاتحون العرب على الضفة الشرقية
للنيل في مقابل الجيزة ، والتي كانت أحياؤها تمند إلى الشمال وإلى الجنوب من
لاحصن بابليون ، الشهير في ذلك التاريخ .

وإذا كان الغزاة الروسان قد صنعوا مع مدينة « مصر العندما بنى الإسكندر الأكبر مدينة الإسكندرية وجعلها عاصمة للبلاد في سنة ٣٣٢ق. م ما صعنه المكسوس مع « منف » قبل ذلك التاريخ ، فإن رفض الشعب المصرى للسلطة الرومانية ، وللسلطان الذي مد في عمرها على يد البطالسة ، قد جعل ولاء هذا

الشعب ممنوحًا المصرا دائمًا ، بل وجعل من الإسكندرية ، مدينة أجنبية وغريبة عن روح الوطن ، وحاضرة للجاليات الأجنبية أكثر منها عاصمة صادقة التمثيل لقسات هذه البلاد .

- فإذا ما جاء العرب المسلمون إلى مصر فاتحين لها ، وبحررين لأرضها من سلطان الرومان في سنة ٢٣٩ م.. (سنة ١٨ ه..) ، نجد قائدهم عمرو بن العاص يقيم لهذا الوطن عاصمة جديدة تحمل اسم « الفسطاط » في سنة ٢٤١ م.. (سنة ٢١ ه..) . وإذا بهذه العماصمة الجديدة تقام على مقربة من مدينة « مصر » الفرعونية ، وإلى الشيال من حصن « بابليون » ، الذي يقم هو الآخر إلى الشيال الشرقي .. عبر النيل .. من مدينة « مينا » « مفيس » .
- ◄ حتى إذا كان الانقلاب السياسي والفكرى والحضارى ، الذى أحل سلطان العباسيين مكان سلطان الأمويين في سنة ٢٥٠ م\_ (سنة ١٣٣هـ) ، وجدنا ولاية مصر تصبيح من نصيب الأمير العباسي « صاليح » ، أحد إخوة أمير المؤمنين العباسي السفاح ، فيبعث إليها ، نيابة عنه ، ، « أبا عون » الذي يقيم لها عاصمة جديدة غير الفسطاط في سنة ٢٥١م (سنة ١٣٤ هـ) ، ويسميها « العسكر » ، لأنها كانت في البداية مكانًا لجيشه وشرطته . فإذا موقع « العسكر » هذه ، إنها هو إلى الشيال الشرقي من الفسطاط .
- فإذا ما حكم أحمد بن طولون مصر من قبل العباسيين ، ثم مستقلاً بها استقلالاً ذاتيًا ، بل وحقيقيًا ، عن سلطان خلفاء بغداد ، نجده ينشىء لها عاصمة جديدة يسميها « القطائع » في سنة ٧٧٠م \_ ( سنة ٢٥٨ هـ) . فإذا بموقع هذه العاصمة الجديدة إنها هو إلى الشهال الشرقى من « العسكر » .
- فإذا ما جاء القائد الفاطمى جوهر الصقلى ليفتح مصر ، وليزيل منها حكم الأسرة الإخشيدية المغلف بغلالة رقيقة من الولاء للعباسيين ، وليقيم العاصمة الجديدة « القاهرة » في سنة ٩٦٩م ( سنة ٣٥٨ هـ) ، فإننا نجد موقع هذه العاصمة الجديدة إلى الشيال الشرقى من مدينة « القطائع » .

حتى إذا جاء صلاح الدين الأيوبي إلى مصر جنديًّا في سنة ١١٦٩ م . (سنة ٥٦٥ هـ) ليصبح بعد قليل وزيرًا ، ثم سلطانًا ، نجده يشرع في سنة ١١٧٦ ...
 ١١٧٧ م .. (سنة ٥٧٢ ... ٥٧٣ هـ) في بناء القلعة الشهيرة والسور الذي ضم في أحضائه كل العواصم العربية الإسلامية لمصر منذ الفتح العربي لها حتى ذلك الحين ، وهو السور الذي بلغ طوله ٢٠١٦ و ٢٩ ذراع ، والذي توفى صلاح الدين قبل أن يكتمل إنشاؤه ، ثم اكتمل في عهد أخيه السلطان الكامل سنة ١٢٠٧ ... قبل أن يكتمل إنشاؤه ، ثم اكتمل في عهد أخيه السلطان الكامل سنة ١٢٠٧ ... ٥٠٨ م (سنة ٢٠٤ ... ٥٠٠ هـ) والذي قام ليجسد الوحدة الحقيقية للعاصمة ، رمزًا لوحدة هذا التاريخ العربي الإسلامي لهذه البلاد .

• فإذا ما جثنا اليوم للحديث عن عمر القاهرة ، في ظل تصور جديد الأبعاد هذه العاصمة وامتداداتها العمرانية ، نعبر عنه بعبارة القاهرة الكبرى التي تمتد لتشمل مناطق آثار الفراعنة عبر النيل على الضفة الغربية للنهر الحالد ، فإننا نستطيع أن نقول : إن قاهرة اليوم إنها هي الامتداد المحضاري والتاريخي والمعارى ، ألحى ، والمتطور ، وأيضًا المتحد ، لهذه العاصمة الفرعونية القديمة التي بناها امينا المسم المعفيس في سنة ٠٠٤٠ ق.م ، وأن هذه الموحدة المتطورة لمذه العاصمة ، إنها هي رمز للوحدة المتطورة لتاريخ هذا الشعب وهذا الوطن عبر هذه الأحقاب المتطاولة من التاريخ ، وأيضًا هي المفتاح الذي لا مفتاح سواه لفهم روح الأحقاب المتطاولة من التاريخ ، وأيضًا هي المفتاح الذي لا مفتاح سواه لفهم روح هذا الشعب ، وكنه الحضارة التي صنعها ، ولف ض الكثير من المغاليق التي قد يبصرها البعض في صفحات هذا التاريخ .

وإذا كانت همذه النقاط التي كثفنا فيهما وجهة النظر هذه ، قمد أفضت بنا إلى هذه الحقيقة الهامة ، فمإنها قد أكمدت ولاشك مما سبق أن قمدمناه ممن أننا بغير التجاوز الشديمد ، لانستطيع أن نقول إن عمر القاهرة الآن ألف عام فقط لا غيرا!.

فإذا عن للبعض أن يقول: إن تاريخ الميلاد الذي احتفلنا بمرور ألف عام على حلوله بالنسبة لمدينتنا هذه ، إنها هـو تاريخ ميلاد تسميتها بهذا الاسـم الجديد والانحاذ. • القاهرة \* ــ والذي جاء تعبيرًا عن مرحلة تطورية جديدة في عمرها

المديد، عندما فتحت مصر من قبل الفاطميين ، ورمزاً للـدور الجديد ، والأكثر فاعلية وتأثيرًا ، الذي أصبح لمصر منذ ذلك الحين في المحيط العربي من الخليج إلى المحيط ، والعمالم الإسلامي فيها هو أبعم من الخليج شرقًا و إلى الجنوب الشرقي ، وما هو خلف الحزام الصحراوي الذي يلي بـلاد الشَّمال الإفريقي من الجنوب ـ إذا ما عنَّ للبعض أن يسوق مثل هذا الحديث ، فإننا نستطيع أن نجيبه بـأن اسم والقاهرة ٤ . . في الرواية الأدق والتصور الأكثر منطقية ، لم يطلق على هذه المدينة الجديدة التي بناها جوهر في سنة ٩٦٩ م عندما شرع في بنائها ، ولا عندما اكتمل له هذا البناء . بل لقد سياها \* المنصورية \* في ذلك الحين ، لأن هذه المدينة كانت يومنذ بالنسبة لجوهر الصقلي ضاحية ملكية ، يعدها لاستقيال أمير المؤمنين المعز لدين الله الفاطمي ، وكذلك كانت حصنًا دفاعيًّا يقى العاصمة الأصلية \* مصر \* ( الفسطاط والعسكر والقطائع ) من هجات القرامطة التي كانت البلاد تتعرض لها من الشرق في ذلك الحين . ولقد سهاها « المنصورية » ، تقربًا إلى مولاه المعزبن الخليفة « المنصور» . كما كانت عاصمة الدولة الفاطمية في المغرب ( تونس ) تسمى « المنصورية » كذلك . وكها كان موقعها بالنسبة لمدينة « القيروان » هو نفس موقع \* منصورية ، جوهر الصقلي من \* مصر \* ، العاصمة الأصلية للبلاد ، بيل ولقد أطلق جوهر على بعض أبواب المدينة الجديدة ، ضمن ما أطلق من أسهاء ، اسم «باب زويلة » و « باب الفتوح » ، وهي أسهاء ، وإن ارتبطت بقبائل مغربية كانتُ تحارب ضمن قوات الفتح الفاطمي لمصر ، إلا أنها قد كانت كذلك أسهاء لبعض أبواب «منصورية» المغرب. أما تاريخ ميلاد اسم « القاهرة » ، ومناسبة إطلاقه على هذه العاصمة الجديدة ، فلقد جاءا مع وصول المعز لدين الله إلى البلاد، ليستقر بها ويحكم منها دولته الجديدة المديدة ، حيث ساها «القاهرة» لمغزى سياسي أراد من خلفه الإعلان عن أن هذه العاصمة والسلطة التي يحكم منها ستقهران بقايا النظام العياسي المتربع على عرش بغداد . وكانت هذه التسمية ، بغدبناء جوهر لها بأربع سنوات .

أما أولئك المذين ينسبون إلى جوهس الصقلي فضل اختيار هذا الاسم ، أو

ينسبون فضل اختياره إلى ذلك الغراب اللى وقف على الأسلاك ذات الأجراس فجعلها تدق مؤذنة لعيال البناء بوضع أحجار الأساس ، بينها كان المنجمون يرقبون السهاء ينتظرون ظهور نجم سعيد ليبدأ البناء ساعة طلوعه ، فحكم عليهم الغراب بأن يكون بدء البناء ساعة ظهور النجم « القاهرة ، ذى الطالع غير السعيد أما اللين يلهبون هذا الملهب في تعليل هذه التسمية ، فلا أحسب إلا أنهم قد قادهم شغف الفاطميين بالنجوم والتنجيم إلى تصديق أسطورة تسرمز إلى أن طالع هذه العاصمة إنها هو طالع غير سعيد ، وهي أسطورة تخدم أعداء الفاطميين أكثر مما تخدم الدولة الفتية التي بنيت القاهرة عاصمة لها ورمزا لشبابها العملاق الذي تبدى في ذلك الحين (١).

<sup>(</sup>۱) راجع فى ذلك خطط المقريزى : جـ ۲ ، ص ۱۷۹ ــ ۱۸۰ ط. بولاق . و( اتعاظ الحنقا بأخبار الأثمة الفاطمين الخلفا) للمقريزى أيضًا : ص ۱۱۱,۱۱۱ تحقيق د. جمال الدين الشيال ، ط. القاهرة سنة ۱۹۲۷م.

#### الفصل الشان مصسر ··· هل فنحت أبوا بجما لكل الغزاة؟!

•دراسة لمغزى الفتح الشيعى الفاطمى لمصر السنية

. . وموقف العنصر الوطئى المصرى من هدا
الفتح . . ولطبيعة السلطة التي كانت تمثلها
الدولة الفاطمية : سياسيًا وحضاريًا وفكريًا . .
ولدور مصر الذي تميز بقيام ذلك النظام . .

# تساؤل ٠٠ يحسّبيرالكثيرين

ولكن . . إذا كانت هذه العاصمة الجديدة ، إنها كانت امتداداً عمرانيًا وحضاريًا وتاريخيًا لما سبقها من العواصم ، التي تجاورت وتلاحمت وتعاقبت لتجسد وحدة تاريخ هذه البلاد ، برغم تعدد الغزاة وتنوع سلطات هؤلاء الغزاة ، فمها لا شك فيه أن هذا الحديث إنها يمثل مناخًا صالحًا لتوليد التساؤل حول موقف الإنسان المصرى من هؤلاء الغزاة ، وهل كان عاشقًا للعبودية إلى هذا الحد الذي جعله لا يرحب، بكل قادم ؟ 1 أو على الأقبل سلبيًا إلى الحد الذي جعله يدير ظهره لمرح الأحداث السياسية والعسكرية ، التي تعاقب تمثيلها على أرضه وبين ربوع العواصم التي بنيت على ضفاف نيله العظيم ؟ ا

وإذا كان الإطار الذى نسوق فيه هذا الحديث ، لا يتيح لنا الفسحة كى نتعقب موقف الإنسان المصرى من تعاقب السلطات والغزوات التى شهدتها بلاده في حقب كثيرة ومتعددة من التاريخ ، فإننا ولا بند أن نلمس هذه القضية فيا يتعلق بالفتح الفياطمي لهذه البلاد ، وهو الفتح الذى أثمر ذلك الامتداد الجديد في عاصمتها ، \* القاهرة \* . ولعل هذا التناول الموجز لهذه القضية ، ونحن بصدد الفتح الفاطمي ، يلقى بعض الأضواء على الأحداث المسابهة له في فترات أخرى من تاريخ هذه البلاد .

فقى الفترة ، التى تم فيها فتح مصر من قبل الجيش الشيعى الفاطمى الذى قاده جوهس الصقل ، والتى يعجب البعض كيف تم فيها قبول شعب مصر «السنى » السلفى لحكم الشيعة دون مقاومة شعبية يسجلها له التاريخ !! بل ودون أن يشغل المؤرخون أنفسهم بأى حديث عن موقف العنصر الوطنى من هذه الأحداث الهامة ، والتغيرات الجذرية العميقة التي أصابت السلطة في البلاد ، محا يؤسس عليه هذا البعض دعوى سلبية « العنصر » المصرى على مر التاريخ ، والخنوعه » الدائم للغزاة المتعاقبين !!

إن هذه الفترة التاريخية ، تحمل فى طيات قسماتها الأساسية والبارزة عددًا من الحقائق ، التى تمثّل بعسض الإجابة عن هذا النساؤل السذى يحير الكثيرين . وهى إجابة ، فيها الكثير من الإنصاف الموضوعي لمصر والمصريين.

١ ـ فلقد كانت هذه الفترة الزمنية مرحلة من التاريخ العربى الإسلامى ، شهدت مدًا سياسيًّا وفكريًّا شيعيًّا ، أخد يتعقب السلطة العباسية السلفية المحافظة فى كل مكان ، ويسحب من تحت أقدامها الولاياتِ والإمارات ، وينتزع من فوق هاماتها التيجان .

• ففي أقصى المشرق العربي الإسلامي ، كانت الدولة « البويهية » ، وهي دولة شيعية ، قد بسطت نفوذها ، وامتد سلطانها ليشمل بغداد نفسها ، وليصبح الخليفة العباسي « السنى » السلفي مجرد دمية في أيديهم منذ سنة ٩٤٥ م . ( سنة ٣٣٤ هـ) . هـذا النفوذ البويهي الشيعي ، قد ظل مرفرفا على كثير من البقاع العربية الإسلامية ، التي يذهب جمهورها في عقائده مذهب السلف أكثر من قرن من الزمان (١) .

وفى الجنوب الشرقى من شبه الجزيرة العربية ، وفى منطقة الخليج على وجه التحديد ، قامت للقرامطة ، وهم تيار يسارى فى الحركة الشيعية ، دولة بنزعامة أبى سعيد الجنابى فى سنة ٨٨٩م ـ ( سنة ٢٨٦ هـ) ، ثم أخذت تمد سلطاعها إلى بلاد أخرى ومناطق مجاورة ، فاستولت على اليهامة سنة ٩٠٣م ـ ( سنة ٢٩١ هـ) ،

<sup>(</sup>۱) فيليب حتى ، وآخرون ( تاريخ العرب ) \* مطول» : جـ ۲ ، ص ٥٦٥ ، ٢٦٥ ، ٥٦٧ ، ٥٦٥ ، الطبعة الثانية ، بيروت سنة ٩٥٣ ، ١٩٥٨ .

ثم عهان ، ثم احتلت مكة لفترة من الزمن سنة ٩٣٠م ... (سنة ٣١٨هم.) . وأخذت تغير على الحراق والشام . ودخلت في تحالفات موقتة وتكتيكية مع الخلافة العباسية ، وفرضت عليها الأتاوت . كها غزت البمن بجيش يقوده أحد رجالاتها وهو « نجار حرفي » يسمى « الحسن بن فرج الصناديقي » في سنة ٣٠٥هـ. (سنة ٩١٧م) ، وطمعت في مصر وبللت العديد من المحاولات للاستيلاء عليها زمن الإخشيديين وبعد فتح الفاطميين .

• وفى نفس الفترة الزمنية ، قامت فى اليمن دولة للشيعة الزيديين على يد الإمام الهادى يحيى بن الحسين ( ١٩٥٨ ـ ١٩٥ م ، ٢٤٥ هـ ٢٩٨ هـ) ، وهى الدولة التى قاتلت القرامطة وأجلتهم عن البلاد ، كها قاتلت العباسيين .

• وهى ذات الفترة الزمنية التى قامت فيها الدولة الفاطمية الشيعية في المغرب سنة ٩٠٩ م. (سنة ٢٩٧ هـ)، ثم فتحت مصر سنة ٣٥٨ هـ. (٩٦٩ م)، ثم امتد سلطانها إلى الحجاز في سنة ٣٦٣ هـ. (سنة ٩٧٣م)، بل وإلى الموصل بالعراق ، حيث تُحطب على منابرها مرة للخليفة الفاطمي العزيز (٣٦٥ ـ ٣٨٦هـ، ٩٧٥ ـ ٩٩٦ م)، وإلى بغداد نفسها ، حيث تُحطب على منابرها للفاطميين أربعين أسبوعًا في سنة ١٠٥٨ ـ ١٠٥٩م (١٠).

وهكذا ، لم يكن الفتح الشيعى الفاطمى للمجتمع المصرى السلفى أمرًا فريدًا في نوعه . ومن شم فليس فيه أى شبهة يمكن أن يتعلق بها أولشك الذين يتوهمون فيه دليلاً على سلبية المصريين وخضوعهم المستمر والأبدى للغزاة والفاتحين ا

٢ لقد كانت فى الطبيعة المتساعة لدى الشعب المصرى إزاء المذاهب والفرق والمعتقدات ، التي تضطرب بها الحياة الفكرية العربية الإسلامية ، تربة خصبة ساعدت على تقبل مصر لهذا الطابع الجديد الذى تصطبغ به السلطة الفاطمية

<sup>(</sup>١) المصدر السابس : جـ٣، ص ٧٣٤، وجـ٢، ص ٥٣٤ـ٥٣١ . واتعباظ الحنفا : ص ١٦٦، ١٦٧ . وسيرة القاهرة : ص ١٧٧.

الجديدة. قالتعصب المذهبي والطائفي ، لم يكن نطاقه يتعدى ، في أغلب الأحيان ، إطار الفقهاء والساسة الذين يتاجرون بالمذاهب والأديان . أما جمهور الناس البسطاء ، فلقد كانت نظرتهم أكثر تساعاً ، وأفقهم الاعتقادي أكثر رحابة ، ومصالحهم الحقيقية تقودهم إلى موقف نابع من الإنحاء الوطني ، بصرف النظر عن اختلاف المذاهب الإسلامية التي تنتسب جميعها إلى أجلاء الصحابة وخيرة التابعين ، كها تلتمس جميعها التأييد عن طريق النصوص المأخوذة من القرآن الكريم وحديث الرسول عليه الصلاة والسلام . ولقد ساعد على ذلك ، أنه كانت المخلافة القاطمية سياسة ثابتة في استهالة أهل السنة والجهاعة ، وتمكينهم من إظهار شعائرهم على اختلاف مذاهبهم . وكانت المذاهب السنية المعروفة . . ظاهرة الشعائر في مملكتهم ، وكان مذهب مالك بالأخص ذائعًا ، ومن سأل ظهرة الشعائر في مملكتهم ، وكان مذهب مالك بالأخص ذائعًا ، ومن سأل الحكم به أجيب إلى طلبه » (١) ويشهد لذلك الأمانُ الذي أعطاه جوهر الصقلي لأهل مصر بعد فتحها ، والذي تعهد فيه بترك الناس على مذاهبهم ، إذ الإسلام وسنة واحدة وشريعة متبعة » (١).

٣ - كما أن قرب اعتناق الجمهور المصرى للإسلام ، وحداثة عهده بالخضارة العربية والتعريب ، لم يكونا يؤهلانه للتحزب الشديد والتعصب الأعمى لمواقف اعتقادية ، تنتسب إلى خلافات سياسية تحت زمنى على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان . وهو جمهور ، لم يكن يومها قد دخل ، من حيث جمهرته العظمى ، حلبة العروبة والإسلام بعد . كما أن القبائل العربية ، التى كانت تعيش بمصر ، والتى كانت تشارك في الأحداث السياسية والعامة مشاركة أكثر إيجابية ، قد كانت ترى .. برغم موقفها السلفى في العقائد ... في الفاطميين سلطة عربية شابة وفتية إذا ما قورنت بسلطة الصبية الإخشيديين وكافور الإخشيدي العبد الخصى ، الذي سيطر على الدولة المصرية الإخشيدية عن طريق وصايته على هؤلاء الأطقال ، وإذا

<sup>(</sup>١) محمد عبد أنه عنان ( الحاكسم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ) : ص ٣٧٩ . الطبعة الثانية. القاهرة سنة ١٩٥٩م ( نقلاً عن صبح الأعشى : جسس ، ص ٥٢٤) .

<sup>(</sup>٢) اتعاظ الحنفا : ص ١٠٥ .

ما قورنت كذلك بالأشباح العباسية المتهارية في بغداد ، والتي لم يعد لها من معنى الخلافة ولا رسومها سوى الخِلَع والألقاب إ

فهاذا كانت تلك الخلافة العباسية تساوى فى نظرهم ، ونظر المصريين عمومًا ، وهى التى أصبحت تحت رحمة « البويهيين » و « القرامطة » ، فضلاً عن الجنود الأتراك الذين سيطروا على قصورها منذ ولى عصرها الذهبى ، إذا ما قورنت بالدولة الفياطمية الفتية صاحبة الأسطول المسيطر فى البحر الأبيض ، والذى أخضع السلطانها جزر « صقلية » و « سردينيا » و « قورسيقا » و « مالطة » ، والذى هدد السيواحل الجنوبية لفرنسا وإيطاليا وأغار عليها مرازا ، وعاد منها بالغنائم والأسلاب ، كما غزا سواحل إسبائيا الأموية ؟! كل ذلك منذ ما قبل فتح مصر بأكثر من أربعين عامًا (١).

٤ - أضف إلى ذلك أن الدولة الفاطمية ، كشأن الحركات الشيعية ، إنها كانت تعتمد على الدعاة وسلطان الفكر وغزو العقول قبل أن توجه الجيوش إلى فتح البلاد. ولقد كانت للفاطميين عناية كبيرة بالتمهيدين الفكرى والسياسى لفتح مصر، لأنها لم تكن بالنسبة إليهم مجرد أرض خصبة تضاف إلى خلافتهم ، وإنها كانت أملهم في إقامة مركز يتوسط العالم العربى لتمتد منه سيطرتهم على كل بلاد العرب والمسلمين ، والقاعدة التي من فوقها يمكن لهم إزالة بقايا حكم بني العباس من بغداد . وإذا كانت المحاولات الأولى للغزو الفاطمي لمصر لم تكلل العباس من بغداد . وإذا كانت المحاولات الأولى للغزو الفاطمي لمصر لم تكلل بالنجاح ، فإن هذا الفشل قد علمهم المزيد من الإصرار ، والمزيد من المثابرة على بلل الجهد ، وفي الميادين الفكرية والسياسية بالذات .

ولقد سجل التاريخ أن المعز لدين الله الفاطمى قد أمر فى سنة ٣٥٥ه . ( سنة ٩٦٥ م) ، وقبل فتح مصر بثلاث سنوات ، وقبل وفاة كافور الإخشيدي بعامين ، بأن تحفر آبار المياه للجيش الذى سيفتحها على طول الطريق من المغرب حتى حدودها ! وأن يبنى له فى كل منزلة قصر ينزل به ، وهو فى الطريق إليها بعد

<sup>(</sup>١) تاريخ العرب : جـ٣، ص ٧٣٣، وسيرة القاهرة : ص ١١٥.

الفتح!! كما سير مع جوهر الصقلى جيشًا قوامه ماثة ألف مقاتل ، وصفه المفاوضون المصريون اللين فاوضوا جوهرا في الأمان بأنه المثل جموع عرفات كثرة وعدة " (١)! وقال فيه الشاعر الشيعى محمد بن هانيء الأندلسي ( ٣٢٦\_٣٦٦ هـ، ٩٣٧ م):

رأيتُ بعيني فوق ما كنتُ أسمعُ وقد راعني يبومٌ مِسن الحشر أروعُ غسداةً كأنَّ الأَفْقَ سُلدَ بمثليهِ فعاد غروبُ الشمير من حيثُ تطلع ألا إنْ هذا حشْدُ مَنْ لمْ يبذقُ لهُ غوارَ الكَرَى جفنٌ ولا بات يهجع (٢)

وزود هذا الجيش بأموال ، بلغ مجموعها أربعة وعشرين ألف ألف دينار ، عبئت في ألف وخمسائة صندوق ، كما يقول المقريزي (٣).

وإذا كان هذا الجانب نموذجًا للجهد المادى الذى بذله الفاطميون لفتح مصر، وهو جهد أجاد ابن هانئ وصفه ، عندما قال إنه قد تطلب من القائم عليه ألا يهجع ولا يذوق جفنه النوم . فإن الجهد الفكرى والدعائى والسياسى الذى قام به الدعاة الفاطميون السريون والعلنيون ، تمهيدًا لهذا الفتح ، لم يكن بأى حال من الأحوال بأقل من تجييش الجيوش وتجهيزها بالأموال والسلاح . ولقد بلغ من قوة نفوذ الحزب الفاطمى الشبعى في مصر ، زمن الإنحشيديين ، أن المعز قد بعث اليهم بعد وفاة كافور الإخشيدي سنة ٣٥٧ هـ (سنة ٣٦٧ م) لا بالبنود المنارات والأعلام) ، فوزعت على الأنصار والأتباع وبينهم كثير من جنود (المشارات والأعلام) ، فوزعت على الأنصار والأتباع وبينهم كثير من جنود الدولة ، اللذين أصبح هواهم وولاؤهم للفاتح المنتظر وأمرهم بنشرها ورفعها ، عندما تقترب جيوش الفتح من البلاد. وهذا ما كان . أى أن الغزو لم يأت من المغارج ، بقدر ما تم من الداخل . ولم يكن جيش جوهر الصقلى بأكثر من السيف

<sup>(</sup>١) اتعاظ ألحنفا: ص ٩٦ .

<sup>(</sup>٢) الحاكم بأمر الله: ص ٢٨

<sup>(</sup>٣) اتعاظ حنفا : ص ٩٧ ، ١١١ .

الذي كسرت به القشرة الإخشيدية ، لتتكشف مصر عن مجتمع قد حبل منذ مدة ، وبدرجة كافية ، بهذا العهد الفاطمي الجديد .

٥ ـ ولم يكن الولاء ، الله منحه الشعب المصرى للدولة الفاطمية الشابة والفتية ، منذ ما قبل الفتح ، وليد اختيار فكرى انحاز فيه إلى صف التشيع ، وأدار به ظهره للمجتمع الإخشيدى المملوكي ، الذى فقد الاحترام ومؤهلات البقاء ، بقدر ما كان وليد إدانة شعبية لذلك التفسخ والانهيار الاجتماعي والأخلاقي الذى بلغه هذا المجتمع ، وبخاصة شرائحه الحاكمة والمتسلطة . ويكفى أن نعلم أن التحلل الأخلاقي قد بلغ بأميرات البيت الحاكم حد المجاهرة بالشذوذ في التمتع بمثيلاتهن من الجواري والنساء ! وأن بلوغ أمر ذلك المستوى من التفسخ إلى أسماع الفاطميين ، قد شجعهم وأعانهم على تحديد « ساعة الصفر » التي يغزون فيها البلاد.

فلقد روى أنه كان لأم الأمراء الفاطميين بالمغرب جارية بعثت بها من يبيعها لها في أسواق الرقيق بمصر ، فطلب الوكيل فيها ألف دينار ، فجاءت امرأة شابة على حمار ، فلم تزل حتى اشترتها منه بستانة دينار ، وقيل له : يا مغربى ، هذه بنت الإخشيداشترت الجارية تتمتع بها ! وهى ست كافور ، فلما عاد ( المغربى ) أخبر المعز بذلك ، فأمر بإحضار الشيوخ ، وأمر الرجل فحدثهم بخبر الجارية ، ثم قال : \* يا إخواننا ، انهضوا إليهم ، فلن يحول بينكم وبينهم شىء ، وإذا كان قد بلغ بهم الترف إلى أن صارت امرأة من بنات ملوكهم تخرج وتشترى لنفسها جارية تتمتع بها ، فقد ضعفت نفوس رجالهم ، وذهبت الغيرة منهم ، فانهضوا بنا اليهم . فقالوا : السمع والطاعة ! \* (١) .

وإذا كان نموذج الأميرة الإخشيدية الشاذة هذه ، إنها يمثل تجسيدًا لتحلل الفئة الحاكمة في الدولة الإخشيدية ، فإن موقف المعز وحديثه هذا إنها يمثل فتوة الدولة الفاطمية الشابة . ويدعم منه أيضًا ويزيده وضوحًا وجلاء ، حديث المعز إلى

<sup>(</sup>١) المصدر السابق : ص ١٠٠ .

رجالات دولتها وشيوخ قبائلها عندما بحثهم على عدم الإفراط فى العلاقات بالنساء، ويطلب منهم الاكتفاء بزوجة واحدة ، وهدم الوقوع فى حبائل نظم الجوارى والحريم ، فيقول لهم : « المرزموا الواحدة ، التى تكون لكم ، ولا تشرهوا فى التكثير منهن ، والمرغبة فيهن فيتنغص عيشكم ، وتعود المضرة عليكم ، وتنهكوا أبدانكم ، وتذهب قوتكم ، وتضعف تحايزكم . (أصولكم وأنسابكم ) ... فحسب المرجل الواحدة ، وتحن محتاجون إلى نصرتكم بأبدانكم وعقولكم "أبدانكم وعقولكم" ).

٦ - إن الفتح الفاطمى قد كان بالنسبة لمصر والمصريين فتحًا ، ولكنه من نوع جديد.

ففى كل الفتوحات والغزوات التى عرفتها مصر ، سواء أكانت على يد الفرس أم الرومان أم على يد العرب المسلمين زمن عمرو بن العاص ، شم في عهدى بنى أمية وبنى العباس ، كانت مصر في ظلها لا تزيد عن مجرد « ولاية » تتبع مقر كسرى أو قيصر أو عاصمة الخلافة في المدينة ثم في دمشق ثم في بغداد . وحتى في فترات الاستقلال الذاتي التي بدأها « أحمد بن طولون » ، فإنه قد كان مشوبًا بالكثير من عناصر التبعية لبلاط الخلفاء العباسيين .

أما الفاطميون ، فلقد كانوا فاتحين ، يريدون تحويل مصر إلى عاصمة للإمبراطورية العظيمة التي امتدت تقريبًا بطول بلاد العرب المسلمين وعرضها فى ذلك الحين . وإذا كانت مصر قد شهدت الفاتحين اللين يُتُبِعون عملية الفتح باستنزاف خيراتها ، ليبعثوا بها إلى القواعد والمدن التي جيشت لفتحها الجيوش ، فإنها قد شهدت ، للمرة الأولى ، فاتحًا لا يرسل خيراتها خارج حدودها ، بل يأتى إليها في موكب جليل مهيب ، بعد فتحها بأربع سنوات ، ومعه أهل بيته وحاشية ملكه ، بل وتوابيت بها رفات آبائه : « المهدى » و « القائم » و « المنصور» (٢) ،

<sup>(</sup>١) المعدر السابق: ص ٩٦ ، (٢) المعدر السابق: ص ١٣٤ .

تحف بهم قافلة تتكون من ألفى جمل من جمال قبيلة " زناته " تحمل الأموال والمتاع والتحف والرياش ، كما تحمل الدنانير المذهبية التى سبكت ، كى يسهل حملها ، اعلى شكل طواحين جعل على كل جمل قطعتان " ، حتى " استعظم ذلك الجند والرعية ، وصاروا يقفون في الطرق لرؤية بيت المال المحمول " (1) ا فلقد أصبحت مصر عاصمة ، لا ولاية ، وبدأ دورها القيادى في المنطقة ، لأنه كان قد اكتمل بها يومنذ التعرب والتعريب .

٧-أضف إلى ذلك كله ، بل وفوق ذلك كله ، تلك الأسباب الاقتصادية التى مهدت للفتح الفاطمى ، وجعلت المصريين لا يفتحون صدورهم فقط للفاتح الجديد، بل ويكاتبونه ويطلبون إليه التعجيل بالمجىء . وهى الأسباب التى بلغت ذروتها في سلسلة المجاعات التي شهدها عصر الإخشيديين (٢).

♦ ففى شهر المحرم سنة ٣٣٨ هـ (سنة ٩٤٩م) وفى عهد الأمير الإخشيدى أبى القاسم أونوجور (٣٣٤ ٩٣٠ هـ ٩٤٥ مـ ٩٦٠ م) اشتد الغلاء بالناس، حتى ثاروا عليه، وسدوا عليه الطريق، ومنعوه من صلاة العشاء فى مسجد عمرو ابن العاص.

 ● وبعد ذلك بثلاث سنوات ( ١٤٣هـــسنة ٩٥٢م) ، حدثت موجة غلائية جديدة، تلفست فيها المحاصيل ، وأدت إلى فرار كثير من المواطنين وهجرتهم من البلاد.

وبعد ذلك بعامين ، جاءت موجة غلائية جديدة ، بلغ فيها سعر القمح
 كل ويبتين ونصف بدينارا (٢)، ثم انعدم وجود القمح نهائيًا من أيدى الناس وأدى

<sup>(</sup>١) المصدر السابق : ص ١٠٠ ،

<sup>(</sup>٢) المقريري (كتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة): ص ١١ ــ ١٤ تحقيق د عمد مصطفى زيادة، د. جمال الدين الشيال ط. القاهرة سنة ١٩٤٠م.

 <sup>(</sup>٣) \* الويسة »، قديمًا، تساوى كيلة مصرية بمكاييلنا الحالية . والدينار يساوى ستين قرشًا
بعملتنا المصرية الحالية ، راجع : د. ضياء الدين الريس ( الخراج والنظم المالية للدولة
الإسلامية ) : ص ٣٤٢ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ العلمة الثانية . القاهرة سنة ١٩٦١ م .

سوء الحال بالناس إلى الثورة وامتدت الشورة والمعارك إلى المساجد عما أدى إلى كسر منبر الجامع بمدينة مصر.

- وبعد ذلك بتسم سنوات (سنة ٣٥٢ هـ سنة ٩٦٣م) حدث غلاء شديد امتد تسع سنوات ، وكان الحكم يومئذ للأمير على بن الإنتشيد ( ٣٤٩ ـ ٣٥٥ هـ ، ٩٦٠ ـ ٩٦٠ م ٩٦٠ على عهد كافور الإخشيدى ، ولم يرتفع ماء النيل عامها عن خمسة عشر ذراعًا وأربعة أصابع ، وتضاعف سعر السلع الغذائية إلى ثلاثة أضعاف . وعز الخبز فلم يوجد ، وزاد الغلاء حتى بلغ القمع كل ويبتين بدينار » .
- وفي العام التمالى من سنوات الشدة هذه (سنة ٣٥٣ هـــسنة ٩٦٤ م) ، اشتد اضطراب ماء النيل وتراوحت زيادته ونقصانه ما بين خمسة عشر ذراعًا وأربعة أصابع وما بين ثلاثة عشر ذراعًا . وعمت الفتن ، وانتشر السلب والنهب ، وتجمهر الناس في جامع عمرو بن العاص في يوم الجمعة ، حتى مات ربجل وإمرأة من شدة الزحام ، ولم يصل الناس يومها صلاة الجمعة بسبب المحنة التي كانت تأخذ منهم بالخناق ! .
- واستمر نقصان ماء النيل في الأعدوام التالية ، حتى بلغ نقصائه الذروة في العام الذي سبق وفاة كافور الإخشيدي ، حيث لم يتعد اثنى عشر ذراعًا وأصابع ، وهو الأمر الذي لم يقدع مثله \* في الملة الإسلامية \* كما يقدول المقريبزي . حتى إذا مات كافور الإخشيدي في العام التالي (سنة ٣٥٧ هـــسنة ٣٦٧ م) ، \* كثر الاضطراب ، وتعددت الفتن ، وكانت حروب كثيرة بين الجند والأمراء ، قتل فيها الخلق كثير ، وانتهبت أسواق البلد ، وأحرقت مواضع عديدة ، فاشتد خوف الناس ، وضاعت أمدوالهم ، وتغيرت نياتهم ، وارتضع السعر ، وتعدر وجدود الأقوات حتى بيع القمع كل ويبة بدينار . واختلف العسكر ، فلحق كثير منهم الأقوات حتى بيع القمع كل ويبة بدينار . واختلف العسكر ، فلحق كثير منهم المز بالحسن بن عبد الله بن طغج ، وهو يومشذ \* بالرملة \* ، وكاتب الكثير منهم المز لدين الله الفاطمي ، وعظم الإرجاف بمسير القرامطة إلى مصر ، وتواترت الأخبار بمجيء عساكر المعز من المغرب ، إلى أن دخلت سنة ٨٥٥هــ (سنة ٨٩٨ ) ، ودخل القائد جوهر بعساكر الإمام المعز لدين الله . . \* .

فهل بعد هذه الصورة التي يقدمها لنا المقريزي عن المجاعات والغلاء اللذين أصابها المجتمع المصرى قبيل الفتح الفاطمى ، مما أدى إلى « تغير نيات الناس . وهروب معظم الجيش والجند إلى الشام ، ومكاتبة الكثير من الناس . بمن فيهم الجند للمعز يطلبون منه تسيير جيشه لفتح البلاد ، هل بعد هذه الصورة ، وخاصة إذا ما أضيفت ملاعها وقسهاتها إلى ما قدمنا قبلها من أسباب ، هل بعد ذلك يوجد ما يجعلنا نستغرب تلك السهولة التي فتح بها الفاطميون مصر يومئذ ، وهي التي سبق أن استعصت على جيوشهم من قبل ؟! وهل يستطيع بعد ذلك منصف أن يتخذ من سكوت المصريين على الفتح والفاتحين ذريعة يحاول عن طريقها النيل من إيجابية المصريين إزاء مصيرهم ووطنهم ؟! وهل نستغرب بعد ذلك إذا علمنا أن الذين جالت بخواطرهم مقاومة جيش جوهر الصقلي هم جاعة من الإخشيدية فقط ، ولكن معظم الزعاء المصريين آثروا مهادنة الفاتحين والتفاهم معهم ، وقر رأيهم على أن يتقدموا إلى جوهر بطلب الأمان والصلح ، والتفاهم معهم ، وقر رأيهم على أن يتقدموا إلى جوهر بطلب الأمان والصلح ، والتفاهم بن عبد الله الحسيني ، أن يكون سفيرهم لدى الفاتح ، فأجابهم إلى مسلم بن عبد الله الحسيني ، أن يكون سفيرهم لدى الفاتح ، فأجابهم إلى ذلك إلا

إننا لا نعتقد أن هناك غرابة ف ذلك ، لأن الأسباب التي قدمناها بصدد هذه القضية كافية فى جعلنا نعتقد أن مصر كانت يومئذ قد أصبحت ثمرة ناضجة للقطاف ، ولقطاف الفاطميين على وجه التحديد .

<sup>(</sup>١) الحاكم بأمر الله : ص ٢٩ .

# الفصل الثالث الوجه المشرق لمصالفا طمية

دراسة للعصر الذهبى الله عاشته مصر فى ظل الحكم الفاطمى . . والغنى والترف الله يسن شهدهما مجتمعها . . وما احتفلت به يومثذ من أعياد وما حفلت به من نشاط فى مختلف أوجه الحياة وميادينها . .

# أزهى العصور المصرية

شه قساهسرةُ المعسز، فسإنّها بللدُ تَخَصّس بالسرّة والهنّسا أو ما تَسرّى في كسلٌ قصر مُنيّسةً مِن جانيْها، فَهْنَ مُجتمّعُ النّني

كان الفاطميون قد اعتقدوا ، وهم محقون في ذلك تمامًا ، أن فتح مصر ، وإقامة مدينة القاهرة قد حسم المعركة المحتدمة في العالم العربي الإسلامي لصالح تيار التشيع ضد العباسيين السلفيين ، وأيضًا لصالح الاتجاه الفاطمي في الحركة الشيعية ضد القرامطة والزيدية والبويهيين . ولقد عبر أبن هانئ الأندلسي ، شاعر الشيعة الفاطمية العملاق ، عن هذه الحقيقة في بيت من الشعر ، واثع وجامع في ذات الوقت ، عندما قال :

يقول بنو العباس: هل فُيحتُ مِصْراً! فقل لبنى العباس: قد قُفِسى الأمرُ (١) وإذا كان اختيار جوهر لمكان القاهرة إلى الشيال الشرقى من العاصمة القديمة (الفسطاط والعسكر والقطائع) بحكومًا بذلك « القانون » المصرى القديم ، الذي استنته الروح المصرية ، وحافظت عليه منذ ملكها الفرعوني « مينا » وعاصمته الشهيرة « منفيس » ، فإن اختيار الخلافة الفاطمية ، ممثلة في المعز لدين الله ، لقاهرة كعاصمة للخلافة كلها ، إنها كان محكومًا بذلك الطموح المشروع ، الذي

(١) اتعاظ الحنفا : ص ٩٧.

كانت تذكّيه إمكانيات الدولة الفتية ، لأن تكون القاهرة قلبًا لإمبراطورية عربية السلامية ، وأن يكون مركزُها المتوسط لرقعة الوطن العربي الإسلامي الكبير مؤهّلاً جديدًا يضاف إلى موهّلات الخلافة الفاطمية في معركة تجميع الإمارات والولايات العربية حول هذه العاصمة الشابة ، وذلك المركز الجديد.

وإذا كانت القاهرة قد مرت بفترات من المحن والشدائد في أواخر عصر الدولة الفاطمية ، وفيها بعد هذا العصر ، وحتى في عصرنا الحديث ، فإن الأمر المؤكد والذي لا يُخطئه وعى الباحثين المنصفين ، هو أن المعنى الكبير الذي استهدفه الفاطميون من وراء اتخاذ القاهرة عاصمة لخلافتهم وهو أن تصبح الحاضرة والمنارة والقائدة للعالم العربي الإسلامي ، والقلب النابض للحضارة العربية الإسلامية وان هذا المعنى الكبير قد عاش للقاهرة وعاشت له القاهرة ، ولم تستطع المحن وفترات الشدة التي شهدتها هذه العاصمة منذ إنشائها إلا أن تزيدها ارتباطا برسالتها هذه ، وقدرة على الوفاء لملايين الوطن العربي الكبير بها عليها تجاههم من التزامات ومستوليات.

وإذا كان جوهر الصقلى قد قال الأهل مصر ، عندما تم له فتحها ، إن غرضه من هذه الحملة إنها هو « العبور إلى مصر ، ليمضى إلى الجهاد لقتبال الروم » (١) فإننا نجد المعز لدين الله بعد أربع سنوات من هذا الفتح ، وعندما وصل ركبه الملكى إلى القاهرة في رمضان سنة ٣٦٢هـ.. (سنة ٣٧٢ م) ، وبعد أن خر لله ساجدًا ومصليًا وشاكرًا ، يجمع إليه الوجوه والأعيان ليؤكد لهم المعنى الذي تحدث عنه جوهر ، والمدى يؤكّد النظرة الجديدة لمصر ، والدَّورَ الجديد لمعاصمتها ، والرسالة التي تريد الدولة الفاطمية تحقيقها من وراء هذا الفتح المبين . وذلك ، عندما يخطب في الناس قائلاً لهم : إنه لم يبرد بدخول مصر زيادة في رقعة مملكته ، ولا زيادة في الأمسوال والجبايات ، وإنها أراد من وراه ذلك « إقامة الحج والجهاد» (١) ومن هنا ، كان ذلك المعنى الجديد الذي أشرنا إليه فيها تقدم لهذا

<sup>(</sup>١) المصدر السابق: ١٠٨٠ .

<sup>(</sup>٢) اليافعي (مرآة الجنان وعبرة اليقظان) : جـ ٢ ، ص ٣٨٤ . ط . حيدر آباد بالهند سنة ١٣٣٩ هـ

الفتح ، والمركز الجديد الذي أُعد لمصر كى تقوم به ، والدور الجديد والهام ، بل الرئيسي ، الذي أصبح على القاهرة أن تؤديه تجاه كل أنحاء بلاد العرب المسلمين.

وإذا كانت مصر قد ظلت تشهد حكم الفاطميين لها ومنها ما يزيد قليلاً على القرنين من الزمان ، وذلك منذ أن فتحت في سنة ٩٦٩م . (سنة ٣٥٨ه .) ، حتى إعادة الخطبة لبنى العباس على منابرها بواسطة صلاح الدين الأيوبى ، وموت آخر خلفائها العاضد سنة ١٧١١م . سنة ٧٥٥ هـ ، فإننا نستطيع أن نقول: إن نصف هذه الفترة تقريبًا كان ، على وجه الإجمال ، عصر ازدهار وحضارة وتقدم ، سجلت فيها مصر الكثير من الأيسادى البيضاء على الحضارة العربية الإسلامية ، وأسهمت أثناءها بالكثير من الأنصبة والإنجازات في صناعة التقدم التى أنجزت في ذلك الحين . بينها كان نصفها الآخر ، هو النصف المظلم، اللكي بدأ ه بالشدة المستنصرية ، التي أنت مجاعتها وفوضاها منذ سنة ٢٠١١م اللكي بدأ ه بالشدة المستنصرية ، التي أنت مجاعتها وفوضاها منذ سنة ٢٠١١م على كل ما هو متحضر ومشرق ومتقدم في هذه البلاد ، والتي لا نغالي إذا قلنا إنها على كل ما هو متحضر ومشرق ومتقدم في هذه البلاد ، والتي لا نغالي إذا قلنا إنها العصور المملوكية ، وحتى الزحف الاستعماري الغربي في العصر الحديث .

وإذا كانست صفحات هذه الحقبة الزمنية ، التي بدأت ابسالشدة الستنصرية ، سيأتي دورها بهذه الدراسة بعد قليل ، فمها لا شك فيه أن تقليب بعض صفحات مصر والقاهرة في عصرها الذهبي الذي استفتحت به حياتها هو أمر هام ، وجدير ببعض الوقفات المشاملة دائها ، المتأنية حينا ، الموجزة والسريعة حينا آخر ، جلاء لوجه الحقيقة في هذه الحقبة من حقب التاريخ .

# الغيسنى والترون

كان حضور المعز إلى القاهرة بعد إنشائها بأربعة أعوام وتسعة عشر يومًا . وكان موكبه ، الذى سبقت الإشارة إليه ، قد ضم ألفى جمل من إبل قبيلة الزناته المحلت بالمتاع والرياش والأموال ، والذهب الذى سبكت دنائيره على هيئة طواحين ، حتى لقد رأينا المتاريخ والمؤرخين يتحدشون كثيرًا عن " ذهب المعز المدى يستعصى على أكثر النساس مقاومة إغرائه . والحق أن الغنى والترف الللين شهدتها القاهرة في عهود المعز والعريز ( ٩٩٦ ـ ٣٩٠ م ، ٣٦٠ ـ ٣٨٦ هـ) والحاكم ( ٩٩٦ ـ ٩٩٠ عهود المعز والعريز ( ٩٩٠ ـ ١٠٢١ م ، ٣٨١ هـ) والحاكم ( ١٠٢١ ع ملا ١٠٢١ م ، ١٠٢١ م ، ١٠٢١ م ، ١٠٤ ملا كرد على من حكم الخليفة المستنصر ، التي سبقت الشدة الشهيرة في عصره ، الحق أن الغنى والترف اللذين عاشتها هذه العاصمة الملوكية كانا من الوضوح والبروز بحيث استرعيا أنظار المؤرخين ، شيعة كانوا أم سنيين ، وجميع الرحالة والزوار الذين نزلوا مصر في ذلك العصر ، موالين للفاطميين كانوا أم معادين ، بيل إن مرور ألف عام على هذه الحقبة التاريخية بها حملت من أحداث وتطورات لم تستطع أن تخفى عن أنظارنا المعاصرة أمارات الغنى والترف اللذين والمرف اللذين عاشتهها القاهرة في ذك الحين .

وإذا كان المؤرخ السلفى « ابن كثير » ، يرى أن الخلفاء الفاطميين كانوا جبابرة وظلمة ، فإنه لا ينسى أن يذكر لنا أنهم كانوا « أغنى الخلفاء وأكثرهم مالاً (١٠). ولم

<sup>(</sup>١) ابن كثير (البداية والنهاية في التاريخ) : جـ ١٢ ، ص ٢٦٧ . ط القاهرة .

يكن هذا الغنى المذى تحلى به الخلفاء الفاطميون ظاهرة ملكية خاصة بهم ، لأن الهدايا والخلع والجود والكرم الذى كانوا يهارسونه ، وفق العادات العربية الأصيلة والتقاليد الملكية ، قد كان يخلق حول قصور هؤلاء الخلفاء طبقة اجتماعية غنية ، وفشات كثيرة تمارس حياة الترف والبلخ ، وترفيل في حليل النعيم المذى أفاضه الفاطميون على هذه الفنات .

ولقد أخدات مدينة القاهرة فى الاتساع ، حتى تجاوزت السور والأبواب التى اقامها من حولها جوهر الصقلى عندما بناها ، وأخذت فى الاقتراب والتداخل مع العاصمة القديمة « مصر » ، التى ظلت تحتفظ بدواوين الحكم ومقار الموظفين ، على حين كانت القاهرة ضاحية ملكية يسكنها الفاطميون . ولقد كان اتساع القاهرة وتداخلها مع « مصر » مسايرين ومصاحبين ، بل ومعبريس ، عن ذلك الاندماج الذى أخد فى التزايد والعمق والانساع بين السلطة الشيعية الجديدة والعنصر الأصلى الذى يسكن هذه البلاد .

وعندما زار الرحالة الفارسي ناصري خسرو ( المتوفى ـ سنة ١٠٦١م ٥٣ هـ) القاهرة ، ومكث فيها ثلاث سنوات ( ١٠٤٧ ـ ١٠٥٠م) ، سجل لنا صورة راثعة لذلك الغني والترف اللذين عاشتها البلاد قبل حدوث الشدة المستنصرية سنة ١٠١٦م .

• فهو يحدثنا عن الحوانيت التي كانت القياهرة تضمها ، والتي كان عددها يزيد عن العشرين ألف حانوت ، مملوكة جميعها للخليفة الفاطمى ، وكيف كانت هذه الحوانيت تؤجر للناس ، وكيف كان إيجار الحانوت منها يصل أحيانًا إلى عشرة دنانير في الشهر الواحد ،

• كما يحدثنا عن المنازل التى كان الخليفة يملكها فى القاهرة و « مصر » والتى بلغت عدتها نحوًا من ثمانية آلاف منزل ، يعوجرها للناس ، وكيف ارتفعت المنازل فى « مصر » حتى بلغ عدد طوابق بعضها أربعة عشر طابقًا ، ثم كيف بلغ تعداد سكان العاصمة نصف ميلون من الأنفس ، وكيف بلغت مساحة « مصر »

وحدها ، كما يقول الرحالة ابن حوقل ، صاحب ( المسالك والمهالك) والمتوفى سنة ٩٨١م ـ ( سنة ٣٧١ه هـ ) ثلث مساحة بغداد ، وكيف اتسعت المنازل فيها حتى وسع بعضها مائتى ساكن ، وكيف أقيمت فى أنحائها الحدائق والمتنزهات ، وكيف تحولت بعض أسطح قصور الخليفة وما زرع عليها من أشجار إلى متنزهات على درجة عظمى من الجهال .

- كما يحدثنا خسرو عن تعداد الجمال التي خصصت في القاهرة لحمل مياه الشرب إلى سكان الشوارع غير الضيقة ، وكيف بلغ تعدادها ، • ، ، ٥٢ جمل ، وذلك غير الرجال اللذين يحملون القرب المملوءة بالماء على ظهورهم إلى المنازل الواقعة في الحارات الضيقة ، التي لا تستطيع الجمال أن تصل إليها .
- وكيف بلغ قصر الخليفة ، بل قصوره ، درجة من العظم والضخامة أصبحت معها أشبه بالمدينة عندما ترى من قرب ، وأشبه بالجبل عندما ترى من بعيدا ، وكيف ضمت هذه القصور أكثر من ثلاثين ألف رجل وإمرأة ، بينهم عدد غير محدود من الجوارى ، واثنا عشر ألف خادم مأجور ، وكيف بلغ تعداد حرس هذا القصر في كل ليلة ألف رجل ، نصفهم من المشاة ونصفهم من الفرسان .
- وكيف بلغ الأمن والاطمئنان بالناس في هذه العاصمة حـدًا جعل الصياوفة والتجار ، بمن فيهم تجار الجواهر ، يتركون أبواب حـوانيتهم ومتاجرهم مفتوحة ، بعد إسدال الستائر عليها عندما يذهبون إلى الصلاة أو إلى قضاء ما يحتاجون إليه .
- وكيف بلغت الثروة ، التي امتلكتها البلاد ، والتي فاضت عليها حدًا جعل ناصري خسرو يقول : إنتي لا لم أستطع حصر شروتها ولا قدرها ، ولم يسبق لي رؤية تلك النعمة في بلد آخر اله (١).

فإذا ما أردنا أن نقدم نصوذجًا للغنى ، والتقدم اللذين شهدتها مصر فى الصناعة على عهد الفاطمين ، وأن نذكر بعض عناوين هذه الصفحة من صفحات ثروتها ورفاهيتها ، فإننا نستطيع أن نشير إلى «حوض صناعة السفن » حربية كانت أو تجارية ، الذي بناه الخليفة المعز على النيل بالمكان المسمى «بالمقس» ، والذي كان يقع بالقرب من الأزبكية الآن ، والذي ظل للقاهرة ميناء وترسانة سفن إلى أن تغير مجرى النيل ، وقام فى ذلك المكان حى بولاق . ولقد أبصر ناصرى خسرو بنفسه فى سنة ٤٧ ، ام بعض السفن المصرية واسية فى هذا الميناء ، وقال : إن طول الواحدة منها كان ٢٧٥ قدمًا ، أما عرضها فلقد كان الما القدام (١) ! إ

وصناعة النسيج التى اشتهرت بها مصر منذ أقدم العصور ، والتى جاء الفاطميون فوجدوها مزدهرة ومنتعشة ، فإذا بترفهم وفخامة حياتهم ، وإذا بكثرة أحيادهم ومناسباتهم واحتفالاتهم ، وإذا بتعدد وتعقد مراسيمهم ، تتيح لحذه الصناعة المزيد من الازدهار ، وتفتح أمام العاملين فيها الكثير من مجالات الإبداع والتجويد ، حتى أصبحت في البلاد وقتها العديد من الحواضر التي تشتهر بهذه الصناعة ، مثل « تنيس » و « الإسكندرية » و « دمياط » و « دبيق» و « الفرما » والله المربيون عندما أسموه «الفسطاط » التى كانت تصنع قياشًا راقبًا نسبه إليها الأوربيون عندما أسموه «الفستياني» (۲).

وصناعة الخزف الذي ذكر ناصري حسرو أنه كان لطيفًا وشفافًا ، حتى بلغت شفافيته درجة حاكت الزجاج ، إذ كان في ميسور الإنسان أن يرى من باطن الإناء الخزفي اليد الموضوعة خلفه (٣)!

带 非 排

<sup>(</sup>١) سيرة القاهرة : ص ١٢٩ - ١٣٠ .

<sup>(</sup>۲) تاريخ العرب: جـ٣، ص. ٧٤٨ .

<sup>(</sup>٣) المُصدَّر السابق: جـ٣، ص ٧٤٨.

ولقد أخدت المنشآت والمساجد والمتنزهات والآثار العظيمة للغنى والزف الفاطمى في الانتشار في مختلف أرجاء العاصمة ، كما أخدت عمليات تجديدها وصيانتها والزيادة فيها تأخد مكانها اللائق في نشاط الخلفاء الفاطميين و إنجازات الوزراء والمدبرين لأمور السلطة والسلطان . ويكفى أن نعلم أن فترة حكم الخليفة العزيز التي لم تزذ على واحد وعشرين عامًا قد شهدت التجديد والزيادة في هذه المنشآت :

- ١ ـ قصر الذهب بالقاهرة.
  - ٢ ... جامع القاهرة .
  - ٣ ـ بستان سردوس .
- ٤ ... الفوارة بالجامع العتيق ( جامع عمرو بن العاص ).
  - ٥ \_ القصور بضاحية عين شمس .
    - ٦ المصلى الجديد بالقاهرة .
      - ٧ ـ حصن الرسيين.
      - ٨ ـ المنظرة على الخليج.
        - ٩ ـ قنطرة بني وائل .
        - ١١ ـ حمامات القاهرة .
    - ١٢ ـ دار صناعة السقن بالمقس .
      - ١٣ ـ المراكب والسفن .
        - ا دار القطرة (۱).

(١) اتعاظ الحنفا: ص ٢٩٤، ٢٩٥.

كما أدت عناية الفاطميين بتاريخ آبائهم وأجدادهم ، حرصًا منهم على تأكيد الانتساب إلى على بن أبي طالب وزوجه فاطمة بنت الرسول ، إلى إعطاء المزيد من أسباب الترف والسدخ للأضرحة ، وإسباغ كل ما هو فني وجميل على الزارات الخاصة بالأولياء والصالحين ، وما يحييط بهذه المزارات من مساجد ودور للعبادة ، حتى تحولت ٩ الجبانة المعروفة بالقرافة ٩ إلى ١ إحدى عجائب الدنيا ، لما تحتوى عليه من مشاهد الأنبياء . . وأهل البيت . . والصحابة والتابعين والعلماء والزهاد والأولياء ٤ . وإذا كان الفاطميون قد جاءوا إلى القاهرة برفات خلفائهم الذين ماتوا في بلاد المغرب قبل فتحهم لمصر ، واتخذوا من بناء مسجد الحسين وقصة وجود رأسه في هذا المسجد سببًا لمنافسة بغداد العباسيين ، فإنهم قد ساروا شوطًا أبعد في هـ قدا المضهار ، حتى رأيناهم يرعمون أن في الجبانية التي أشرفوا على تعميرها وزخرفتها وتوشيتها \* قبر ابن النبي صائح ، وقبر روبيل بن يعقوب بن إسحق . . وقبر آسية امرأة فرعون . . ومشاهد أهل البيت . . أربعة عشر من الرجال وخمس من النساء ، \* وأُمِّيم \* على كل واحد منها بناء حفيل ، فهي بأسرها روضات بديمة الإتقان عجيبة البنيان ، قد وكــل بها قُومَةٌ يسكنــونها ويحفظونها ، ومنظرهــا منظر عجيب ، والجرايات متصلة لقوامها في كل شهرا ، (١) . فإذا كان هذا الوصف الذي قدم بعض الإشارات إلى ما حفلت به هذه « القرافة » التي أصبحت « إحدى عجائب الدنيا ، قد كتب عنهما عندما زارهما ابن جبير على عهمد صلاح المدين الأبوبي ، وبعد أن دالت دولة الفاطميين ، وأهملت ، بنسب متفاوتة ، الكثير من منشآتهم وآثارهم ، استطعنا أن نقدر مدى الروعة التي كانت عليها هذه الأضرحة والمزارات في ظل خلافة بدلت في سبيل هؤلاء الأموات الشيء الكثير ا

بل إن التاريخ ليذكر لنا أن هذا الاهتهام الزائد من قبل الفاطميين بهذه المزارات والمساجد، قد أتاح فرصة ذهبية للفن العربي الإسلامي كي يتخطى بعض الأسوار التي وضعها أمامه المفكرون السلفيون والمحافظون . فقى مسجد القرافة الذي كان

<sup>(1)</sup> ابن جبير (تلكرة الأخيار عن اتصافات الأسفار) ( رحلة ابن جبير » : ص ٤٩ ط . دار التحرير . المقاهرة سنة ١٩٦٨م.

آية من آيات الفن الفاطمى ، نجد لوحة ليوسف الصديق بن يعقوب وهو ملقى في الجب يستغيث ، رسمها له الفنان الفاطمى « القطامى » الذي كان مقربًا إلى الوزير « اليازورى » في عهد المستنصر ، مثله مثل الفنانين « ابن عزين » وها القاصرة الذين استفادت هذه المزارات بإنتاجهم الفنى إلى حد كبير (١).

وعلى الذين لا يستطيعون أن يتصوروا ، أو أن يستسيغوا تلك العناية الزائدة التى بذلها الفاطميون بهذه المزارات والمقابر ، أن يعلموا أن ما تبقى لنا من عادات خاصة ببناء « الأحواش » و « المنازل » على المقابر ومن حولها ، وكذلك تنظيم الزيارات لهذه المقابر في هذه المناسبات ، إنها تعود في معظمها إلى ذلك الميراث الذي خلفه لنا الفاطميون . فإذا كان ما نشهده اليوم هو حصيلة ما تبقى بعد ألف عام ، فكم كان الرصيد في هذا الميدان قبل مرور هذه القرون العشرة ؟ ا

وإذا علمنا أنه عندما ماتت زوجة الخليفة العزيز وأم ولده في شهر شوال سنة ٣٨٥ هـ.. (سنة ٩٩٥م). أقامت ابنتها على قبرها عزاء استمر شهرًا كاملاً، وأقامت على القبر طوال هذا الشهر، وكان والدها أمير المؤمنين بأتى إلى القبر في كل يوم، وشارك الناس الخليفة وابنته في حزنها بتوزيع أصناف الأطعمة والحلوى في كل ليلة، كما رثاها الشعراء، ونسالوا الجوائز على قصائدهم فيها، تلك الجوائز التي وزعها عليهم العزيز والتي بلخت ألفي دينار (٢) \_ إذا علمنا ذلك، أدركنا ذلك القدر من الترف والغني والبلخ الذي أضاضه الحكم الفاطمي على هذا ألجانب من جوانب العمران القاهري في ذلك الزمان.

#### \* \*

كما كانت المناسبات الكثيرة والأعياد المتعددة التي أخذ الفاطميون في الاحتفال

<sup>(</sup>١) سيرة القاهرة: ص ١٣١، ١٣١.

<sup>(</sup>٢) اتعاظ الحنفا: ص ٢٨٩.

بها، والتي تحولت إلى أعياد قومية ودينية لمصر، وذلك إلى جانب الأعياد القومية التي كانت تحتفل بها مصر منذ الفراعنة، وأيضًا الأعياد القبطية والإسلامية السنية \_ كانت هذه الأعياد والمناسبات من الكثرة بحيث يخيل للإنسان أنه قد كانت وراء كثرتها، ومواسيمها، والاهتهام الرسمي بها، خطة فاطمية لإغراق الناس وإلهائهم من جانب، واتخاذها وسيلة لتطويع الجهاهير للتعاليم الشيعية من جانب آخر، كها كانت كذلك مناسبات للمواكب الرسمية والاستعراضات التي تفيض بألوان من البلخ والمغنى والترف على عاصمة البلاد، ويكفى أن نعلم أن أعياد مصر ومناسباتها في العهد الفاطمي قد بلغت سنويًا ما يزيد على الثلاثين منها:

- ١ ـ رأس السنة الهجرية .
  - ٢ المولد النبوي .
    - ٣ ـ أول رجب .
  - ٤ ـ نصف رجب .
    - ٥ ـ أول شعبان .
  - ٦ ـ نصف شعبان .
    - ٧ ـ. أول رمضان .
    - ٨\_عيد الفطر .
    - ٩ عيد النحر.
- ١٠ \_ مولد على بن أبي طالب.
  - ١١ ـ مولد الحسن .
  - ١٢ ـ مولد الحسين .
- ١٣ \_ مولد فاطعة بنت الرسول .

- ۱٤ ـ يوم عاشوراء ، وهو يوم ذكـرى استشهاد الحسين في كربلاء سنة ٦١ هـ (سنة ١٨٠م).
  - ١٥ \_ عيد فتح الخليج .
    - ١٦ ...عيد النيروز.
    - ١٧ .. عيد الشهيد .
- ١٨ .. عيد النصر (١٦ من محرم) ، وهمو الذي استنه الخليفة الحافيظ لدين الله بمناسبة ظهوره من محبسه .
  - ١٩ ـ المواليد الستة .
  - ٣٠ ــ ليالى الوقود الأربع .
  - ٢١ ... شهر رمضان بأكمله ، وفيه كانت تغلق قاعات الخيارين بمصر والقاهرة .
    - ٢٧ \_ قافلة الحج .
- ٣٣ ـ عيد الغدير ( ١٨ من ذي الحجة ) ـ نسبة إلى " غدير خم " ، ماء بين مكة والمدينة ، يقال إن الرسول آخي عليه على بسن أبي طالب ، أثناء عودتهم من حجة البوداع سنة ، ١هـ ، وقسال يومها : " على منى كهارون من موسى . اللهم وأل من والأه ، وعاد من عاداه ، والصر من نصره ، واخدل من خذله ، ويقال إن أول من احتفل به " معز البدولة بن بويه " بالعراق ، سنة خذله » . ويقال إن أول من احتفل به " معز البدولة بن بويه " بالعراق ، سنة ٣٥٢ هـ . ( سنة ٣٦٣ م ) . وكان أول احتفال للفاطميين به في مصر ، سنة ٣٥٢ هـ ( سنة ٩٧٢ م ) .
  - ٢٤ ـ كسوة الشتاء والصيف ، وكانت توزع على أهل الدولة وذويهم .
    - ٢٥ ـ ميلاد المسيح ، ف ٢٩ كيهك .
      - ٢٦ ـ الغطاس ، في ١١ طوبة .
    - ٢٧ ـ خميس العهد ، وهو عيد مسيحي ، قبل الفصيح بثلاثة أيام .

٢٨ ـ السبت والثلاثاء من كل أسبوع ، وكان الحليفة يركب فيهما للنزهة .
 ٢٩ ـ صلاة الجمعة بالأزهر ثلاث مرات من كل عام يحضرها الحليفة .

۳۰ عيد الصليب ، في ۱۱ توت (۱).

آضف إلى ذلك تلك المناسبات ، التى كانت الدولة تستعرض فيها مظاهر قوتها وعظمتها عندما يزورها زائر أجنبى مثلاً ، أو يأتى إلى عاصمتها أحد الولاة الذين تحرص على إدخال الرعب إلى قلوبهم ، حتى لا تحدثه نفسه بشت عصا الطاعة عليها ، فتقيم أمامه عرضًا عسكريًّا يحضره الخليفة ، كما نصنع نحن الآن في عصرنا الحديث . والمقريزى ، يحكى لنا كيف ركب الخليفة العزيز في ١٩ من شعبان سنة ٣٨٣ هــ (سنة ٣٩٣م) ، لا فوقف على فرسه تحت شراع نصب له ، ومرت العساكر بالخيل والجواشن والخوذ ، فمروا قائدًا قائدًا ، كيل واحد بعسكره فلاثة في حجابه وشاكريته (٢) وبنوده ، وكانوا مائة وستين قائدًا ، فيهم من عسكره ثلاثة في حجابه وشاكريته (أي قيوات ومزية من الجيش) ــ وكان الغرض بهذا العرض أن يرى رسول منصور بن زيرى العساكر العساكر العساكر عن زيرى العساكر عربة .

كما كانت للخلفاء رحلات للصيد ، يخرجون فيها إلى الخلاء في مواكب ذات طابع خاص ، والمقريزي ، يحكى لنا كيف خرج الخليفة العزيز في المحرم سنة ٣٨٣ هــ ( سنة ٩٩٣م ) إلى الجيزة في رحلة من رحلات الصيد ، وكيف اصطاد سبعًا ، وعاد موكبه إلى القاهرة والسبع محمول على بغل بين يدى أمير المؤمنين (٤)!

# # #

<sup>(</sup>۱) خطط المقريزي : جــ ۱ ، ص ٤٩٠ ــ ٤٩٥ ـ واتعاظ الحنفا : ص ٢٤٢ ، ٢٧٢ ، ٢٧٢ . والحاكم بأمر الله : ص ٣٥١ .

<sup>(</sup>٢) الشاكري : الساعى ، أو الرسول ، أو السيف العريض المنحني ذو الحدين .

<sup>(</sup>٣) أتعاظ الحنفا: ص ٢٧٩.

<sup>(</sup>٤) المصدر السابق: ص ٢٧٧.

فإذا ما شئنا أن نلقى نظرة سريعة وخاطفة على حجم بعض الشروات الفردية الحاصة ، التى كانت تتجمع لدى بعض الأفراد ذوى الصلات الوثيقة بالحلفاء ، والذين يتولون تصريف شئون البلاد ، راعتنا ضخامة أحجام هذه الثروات ، التى تجسد لنا ذلك اللون من الغنى والترف والبلخ ، الذى كان عليه هذا الجانب من جوانب حياة مصر في ذلك الحين .

- فعندما يختطف الموت إحدى بنات المعز لدين الله ، يجدون في ثروتها الخاصة
   من بين ما يجدون ٢٠٠٠, ٢٠٠٠ دينار !!
- وعندما تموت بنت أخرى من بناته ، يجدون لديها ، ضمن ما يجدون ، حجرة خاصة بالمجوهرات ، بها خمس حقائب من الزمرد، وثلاثة آلاف صندوق علوءة بالفضة ، حتى إذا ما أرادوا ختم ثروتها هذه بالشمع ، احتاجوا إلى أربعين رطلاً من الشمع في عملية الختم هذه (١)!!
- وعندما يتخلص الحاكم بأمر الله ، عن طريق القتل ، من « برجوان » زعيم الجند الصقالبة ، المذى كان مستبدًا بالسلطة والسلطان ، عندما كان الحاكم صغيرًا في السن ، يجدون في تركته من الطرائف والطرف والأموال أشياء تربو على الوصف ، من بينها ألف سروال دبيقى ، وعدد ضخم من الآلات الموسيقية ، وكميات هائلة من التحف والأشياء النادرة (٢).
- وعندما يولد ليعقوب بن كلس ، وزيسر العزيز ، ولد ذكر في سنة ٣٦٩ هـ.. (سنة ٩٧٩م) ، يرسل إليه العزيز بهدية تحوى ضمن ما تحوى : مهدين من خشب الصندل المرصع ، وثلثاثة ثوب ، وعشرة آلاف دينار عزيزية ، وخمسة عشر فرسًا مسرجة ملجمة ، ضمنها لجامان من الذهب الخالص ، وقدر كبير من الطيب ، حتى لقد قدرت هذه الهدية بهائة ألف دينار (٣).

<sup>(</sup>١) سيرة القاهرة : ص ١٣١ .

<sup>(</sup>٢) شهاب الدين عبد البرهم بن إسهاعيل المقدسي ، المعروف بأبي شسامة (كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ) : جدا ص ٤٩٤ تحقيق د. محمد حلمي محمد أحمد ، ط. القاهرة ، سنة ١٩٦٢ .

• وعندما يغضب العزيز على وزيره هذا ، فيعتقله فى ٣ من شوال سنة ٣٧٣هـ . (سنة ٩٨٣م) ، لمدة شهرين ، تتكشف الثروة النقدية السائلة التى وجدت بداره عن ١٠٠, ١٠٠ دينار ، كما يتكشف الأمر عن أن ابن كلس هذا كانت لديه أوراق تحصى العطايا التى يخرجها لمريديه ، والتى بلغت ألف دينار شهريا ! ولا عجب ، فلقد كان إقطاعه فى السنة ٢٠٠, ٣٠٠٠ دينار ، وذلك غير المبائى والرباع ، وغير ثروته الخاصة (١)!

فإذا ما مات يعقوب بن كلس هذا في ٥ من ذى الحمجة سنة ٢٨٠ هـ. (سنة ٩٩٠ م) نجده يكفن في خمسين ثوبًا ما بين ومش ومثقل ، (منسوج بالذهب) ، وشرب دبيقي مذهب ، وجفت كافور ، وقارورتين من مسك ، وخمسين منا ماء ورد فكان ما كفن به وخيط به عشرة آلاف دينار (٢)!

• فإذا ما عقد الخليفة العزيز قرائه على امرأة ليتخذها له زوجة ، نجد أن صداقها قد بلغ ماتتى ألف دينار ، كما نجد أن أجر الكاتب لعقد الزواج قد بلغ ألف دينار ، وذلك غير الخلع والهدايا التى أعطيت للقاضى والشهود ، اللين حلوا على البغال ، فطافوا المدينة بالطبول والبوقات !

ويومها ، أخد العزيز في تلقى الهدايا المناسبة ، لهذه المناسبة ا ولقد جاءته في هديمة متولى « بسرقة » \_ أي واليها \_ أربعون فرسًا بتجافيف (٣) ، وأربعون بغلاً بسروجها ولجمها ، وستة عشر حملاً من المال ، ومائة بغلة ، وأربعيائة جمل (٤) ا ا

وهى نهاذج قليلة ، ولكنها معبرة عن قمة الغنى والترف والبذخ الذى كان طابع جانب من جوانب مجتمع مصر فى ذلك الحين ، وهو جانب ارتبط بالخلافة الفاطمية فى ذهن الكثير من المؤرخين ، كها أنه قد ترك طابعه وبصهاته على معالم مصر وعهارتها ومعهارها وفنها خلال هذه الحقبة من حقب التاريخ .

<sup>(</sup>١) المصدر السابق: ص ٢٦٧ ، ٢٦٩ . (٢) المصدر السابق: ص ٢٦٨ .

<sup>(</sup>٣) هي ما يجلل به الفرس ، ويلبسه من سلاح وأدوات تقيه الجراح.

<sup>(</sup>٤) المصدر السابق: ص ٢٥٢.

## ا<u>لفعة لمالوابع</u> الحيكاة الفكرية في مصالفاطمية

 دراسة فى الطابع العبربى لحياة مصر الفكرية يبومشذ، ودلالته على نضج عملية التعبريب نيها.. والمؤسسات الفكرية والعلمية والتعليمية التى قامت بها.

# الحب ة الف رية

هناك زعم يسوقه البعض ، مدعيًا فيه ذبول الحركة الفكرية والأدبية في مصر على عهد الفاطميين ، وانعزال القاهرة " عن تقدم الدراسات الإسلامية في القرنين ، الحادي عشر والثاني عشر ( الميلاديين ) \* ، ثم ينتهي هذا الزعم إلى القطع بأنه «قلها ظهر هناك قادة في محيط الفكر أو الأدب العربي تحت الحكم الفاطمي » (١). ونحن لا نريد هنا البحث عن مدى الصدق ومدى الزيف في هذا الادعاء ، لأننا نبرفضه مين أسياسه ، ونيري فيه نظرة سطحينة أثمرتها عبواميل عدة ، كنان في مقدمتها:

١ \_ذلك التحيز الذي نجده في كتب التاريخ ، التي كتبها المؤرخون السلفيون \* السنيون » عن مصر والقاهرة في زمن الفياطميين . وهو موقيف يجب أن يبرأ منه الباحسث المعاصر ، لأنبه لا ناقة لنه ولا جمل في هذه الخلافات التبي فرقست العالم الإسلامي ، فكريًّا وسياسيًّا ، حينًا من الدهر ، والتي زالت ، منذ قرون ، بواعثها وأسبابها ، ولم يعد مستساعًا أن نظل في القرن الخامس عشر الهجري أسرى لحزازات ، ولدت أسبابها ثمم ماتت في زمني على بن أبسى طالب ومعاوية بن أبي سفيان . وهما الموقف المتحيز، الذي يغمط الحياة الفكرية والأدبية المصرية على عهد الفاطميين حقها من الإنصاف والتقديس ، هو الذي أوحى ، ولا يزال يوحى

<sup>(</sup>١) سيرة القاهرة : ص ١١٨ .

لبعض الباحثين بمثل هذه المزاعم التي لا ترقى إلى مصاف الحقائق ، ولا تثبت للبحث والتمحيص .

٢ \_ إن عملية التأريخ للحياة الفكرية والأدبية ، في حضارتنا العربية الإسلامية ، قد أصيبت بدآء الاهتهام الأكثر من اللازم بمجتمع العاصمة المركزية التي كمانت مقرًّا للخلافة ، وعلى الأخص في بغداد ، وبداء الإهمال الأكشر من اللازم لمجتمعات المدن الأخرى ، برغم ما حفلت به من نشاطات فكرية عَبْرَ الكثير من العصور . وعلى الرغم من أن القاهرة كانت \_ على عصر الفاطميين \_ إنها تمثل بالنسبة للعالم العربي عاصمة الخلافة الأقوى والأوسع انتشارًا ، فإن انهيار هذه اللافة على يد سلطة سلفية « سنية » محافظة ، هي سلطة السلولة الأيوبية ، التي كان ولاؤها للخلافة العباسية في بغداد ، وكـذلك كتابة تاريخ هذه الفترة من قبل مؤرخين سلقيين " سنيين " ، قد جعلهم لا يعترفون للفاطميين بمرتبة الخلافة وإمارة المؤمنين ، وإنها رأوا فيهم « أدعياء » مغتصبين للسلطة . بـل لقد بلغـت الجرأة ببلاط الخلافة العباسية ببغداد إلى الحد الذي جعل الخليفة القادر بالله يجمع فقهاء بـ لاطه في سنة ٤٠٢ هـــ ( سنة ١٠١١م ) ليصدروا فتوى يطعنون فيها في انتساب الفاطميين إلى أهمل بيت الرسول ! فإذا ما جاءت سنة ٤٤٤ هــ ( سنة ١٠٥٢م) ، صدرت حول هذا الموضوع ببغداد وثيقة ثانية ، زيد فيها أن نسب الفاطميين لا يعود إلى على بن أبي طالب ، وإنها إلى اليهود أو المجوس (١) ! ومن ثم ، فلقد عوملت مصر عند تأريخ الحركة الفكرية والأدبية في حضارتنا العربية الإسلامية معاملة الإقليم ، وعوملت القاهرة عاصمة الإقليم ، التي تغلب عليها متخلب الدعى الحينًا من الدهر ، ثم عادت تخطب على منابرها للخليفة الشرعى المتربع على عرش بغداد أ

٣ ... إن الآثار التي سجلت فيها الحركة الفكرية المصرية ثمار هذه الفترة ،

<sup>(</sup>١) الحاكم بأمرالله : ص ٧٧ـ٧٥ .

والكتبوالمجلدات التى كان بإمكانها أن تصبح الآن ألسنة ناطقة بالأنشطة الفكرية لتلك الحقبة الزمنية ، قد أصابها التلف والسلب والنهب والضياع مرتين . أولاهما ، عندما حدثت الشدة المستنصرية ، التى بدأت بمجاعة سنة ٢٠١١م (سنة ٥٥٩هـ) ، وثانيتها ، عندما انتهى العصر الفاطمى على يد صلاح الدين الأيوبى ، وعهد بمكتبة القصر الفاطمى التى «كانت خزائنها مشتملة على قريب مائة وعشرين ألف مجلدة » ، عهد بها « للأمير بهاء المدين قراقوش . . وهو تركى لا خبرة له بالكتب ، ولا دربة له بأسفار الأدب » ، فأصبحت « كالميراث مع أبناء الأيتام ، يتصرف فيها بشره الانتهاب والالتهام » (١١) ، عما أدى إلى ضياع هذا التراث ، ذلك الضياع الذي أحدث العديد من الثغرات في العديد من الأبنية الفكرية في حضارتنا العربية الإسلامية ، كها خلق وهمًا شاع بين الكثيريين عن ذبول الحياة الفكرية والأدبية في مصر على عهد الفاطميين .

وإذا كان حديثنا هذا عن الحياة الفكرية فى مصر الفاطمية ، هو إثباتا لوجودها وأهميتها بأدلة السلب والنفى لحجج الخصوم ، فإن لدينا العديد من أدلة الإيجاب التي نستطيع بواسطتها أن نبرز وجهًا ظل مشرقًا ردحًا طويعلًا من الزمن ، ويجب أن يعود له إشراقه في الدراسات التي تقدم عن حياتها في ذلك الحين .

## العلماء والأدباء:

ومن بين هذه الأدلة التي نسوقها لإثبات دعوانا هذه ، أسهاء تلك الكوكبة من علماء ذلك العصر ومفكريه وأدبائه وشعرائه ، والذين يكفى الاطلاع على قائمة بأسهائهم لإقامة الدليل على غنى الحياة الفكرية لمصر يومئذ بالنوابغ والأفذاذ . وإذا كان من المتعلر علينا أن نورد في هذا الإطار كل الأسهاء التي لمعت في ذلك العصر بميدان الفكر والثقافة ، فإننا نقدم فقط بعض هذه الأسهاء ، كنموذج ودليل جيدى البرهنة على صدق ما نقول ، وذلك مثل أسهاء :

<sup>(</sup>١) كتاب الروضتين : جـ ١ ، ص ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٦٨٣ ، ٦٨٧ .

- أبو الحسن على بن يونس: (المتوفى سنة ٣٩٩هـــسنة ١٠٠٩م)، الفلكى
   والمنجم والأديب والشاعر، والذى ألف كتاب «الزيح الكبير» للحاكم بأمر
   الله خصيصًا.
- أبو على الحسن بن الحسن بن الهيشم: (المتوفى سنة ٤٣٠ هـ سنة ١٣٨)
   واضع علم البصريات.
- الحسن بن زولاق: (٣٠٦ ٣٨٧ هـ ، ٩٩٧ ٩٩٧ م) ، المؤرخ الذي عاصر الدولتين الإخشيدية والفاطمية ، والذي كتب سيرة المعز وغيرها من الكتب التي اقتبس منها المتأخرون .
- أبو الحسن على بن محمد السابشتى : (المتوف سنة ٣٩٠هـــسنة ٩٩٩م)،
   صاحب كتاب الديارات .
- أبو عبد الله اليمني: (المتوفى سنة ٢٠٠ هـــسنة ١٠٠٩ م) المؤرخ ، صاحب
   تاريخ النحاة ، وسيرة جوهر القائد .
  - ٠ منصور بن مقشر: الطبيب المسيحي ، الذي عاصر العزيز والحاكم بأمر الله.
    - محمد بن أحمد بن سعيد : الطبيب.
    - أبو يعقوب بن نسطاس: الطبيب.
    - محمد بن القاسم بن عاصم : شاعر الحاكم بأمر الله وجليسه .
- أبو عبد الله محمد بن سلام بن جعفر القضاعي : (المولود في أواخر القرن الرابع ، والمتوفى سنة ٤٥٤ هــسنة ١٠٦٢ م) وهمو مؤرخ ، وفقيه شافعي المدهب ، ومحدث ، تولى القضاء في عهد المستنصر ، وأشتهر بكتابه عن خطط مصر وآثارها .

- أبو الحسن على بن إسراهيم بسن سعيد الحوفى : ( المتسوفى سنة \* ٤٣ هــــسنة
   ١٠٣٨م) ، النحوى ، اللغوى ، الأديب .
- أبو العباس أحمد بن هاشم المصرى : (المتوفى سنة ٤٤٥ هـــ سنة ١٠٥٣م) المحدث والعالم بالقراءات .
- أسو الحسن طاهر بن أحمد المصرى: المعروف بابن بابشاذ، ( والمتوفى سنة ١٩٧٦هـ ١٠٧٦ م).
- أبو الحسن الرشيد بن الزبير: (المتولى سنة ٥٦٣ هـــسنة ١١٦٧م)،
   الشاعر، المنطقي، المهندس، الرياضي.
- الحافظ أبو طاهر السلفى: (المتوفى سنة ٥٧٦هــسنة ١١٨٠م) بعد عمر زاد
   عن مائة سنة ، المحدث ، الناقد ، الراوية ، والذى استقر بالإسكندرية منذ
   سنة ٥١١هــ(سنة ١١١٧م).
  - هاشم بن العباس المصرى: الشاعر الذى تميز بتصوير الطبيعة والإقليم.
- ظمافر بن القماسم الجذاعي الإسكندري: (المتوفى سنة ٥٢٩ همدسسة ١١٣٤م)، الشاعر.
- أبو الغمس محمد بن على الهاشمى: (المتوفى سنة ٤٤٥ هـــسنة ١١٤٩م)،
   الشاعر.
- محصود بن إسهاعيل أبسو الفتيح الدمياطي : (المتوفى سنة ١٥٥ هــسنة
   ١١٥٦م)، الشاعر، وكاتب الإنشاء في عهد القاضي الفاضل.
- الصائح طلائع بن رزيك: (المتوف سنة ٥٥٦ هـ سنة ١١٦٠م)، الشاعر الحياسي النزعة، والفقيه المصنف في فقه الشيعة، والذي تولى الوزارة ولقب «بالملك الصالح».
- أبو المعالى عبد العزيز بن الحسين بن الحباب الأغلبي السعدي التميمي:

- الشاعر، الملقب بالجليس ، لمجالسته الخليفة العاضد ، ( المتوفى سنة ٥٦١ هـ.. سنة ١١٦٥م) .
- القاضى موفق الدين يوسف بن محمد المصرى ، المعروف بابن الخلال : (المتوفى سنة ٥٦٦ هـ سنة ١٧٠ م) الشاعر الذي تبولى ديوان الإنشاء زمن العاضد،
   وتعلم على يديه القاضى الفاضل .
- أبو الفتوح نصر الدين قلاقس الإسكندرى: ( ٥٣٢ هـ سنة ٥٦٧ هـ ، سنة ١١٣٧ م. سنة ١١٣٧ م. سنة ١١٣٧
  - ابن المأمون البطائحى: الكاتب ، المؤرخ.
- ابسن القيسراني ، أبو محمد عبىد السلام ، المعروف بابن الطويس المصرى :
   صاحب ( نزهة المقلتين في أخبار الدولتين ) الذي ينقل عنه المقريزي .
  - أبو الفتوح الدمياطي : الأديب الناثر البليغ ، شيخ القاضي الفاضل .
- الوزير أبو القاسم على بن منجب ، الشهير بابن الصيرف : ( المتوفى سنة ١٢ ٥
   هـــسنة ١١٤٧م) ، الكاتب ، المؤرخ ، صاحب ( الإشارة لمن نال الوزارة )
   وغيره من الكتب .
- أبو على عبد الرحيم بن على ، الشهير بالقاضى الفاضل : ( المتوفى سنة ٥٩٦ هـ
   سنة ١١٩٩م) ، كاتب الإنشاء على عهد العاضد وصلاح الدين .
- أمية بن عبد العزيز بن أبسى الصلت : ( المتوفى سنة ٥٢٨ هـــسنة ١٦٣٣م) ،
   الأديب ، الشاعر ، الذى وفد على مصر من الأندلس ، وألف عن علياء مصر وأديائها .
- أبو بكر محمد بن الطرطوشى : (المتوفى سنة ٢٠٥هـــسنة ١١٢٦م) الكاتب السياسى الذى نوّه به ابن خلدون ، والذى وفد على مصر زمن الآمر بأحكام الله .
- أبو حامد أحمد بسن محمد الأنطاكي : (المتوفى سنة ٣٩٩ هــــسنة ١٠٠٨م)، الشاعر، الذي وفد على مصر.

- أبو الحسن على بن عبد الواحد البغدادى : ( المتوفى سنة ١٢ ٤ هـــسنة ١٢٠م) ، الشاعر ، الذي وفد على مصر .
- أبو عمد عبارة بن أبى الحسن اليمنى: (المتوفى سنة ٥٦٩ هـ سنة ١١٧٣م)،
   الشاعر، المؤرخ، الفقيه الشافعي، اللذى وفد على مصر من اليمن سئة ٥٥٠ هـ (سنة ١١٥٥م).
- أبو كامل شبجاع بن أسلم: (القرن الرابع الهجرى) العاشر الميلادى) العالم فى الجبر.
  - •على بن رضوان : ( ٩٨٠ ـ ١٠٦١م ، سنة ٧٧٠ ـ ٤٥٣ ــ) الطبيب .
  - أوتيقيوس : بطريرك الإسكندرية ( ٩٣٩ م ـ سنة ٣٢٨ هـ) ، المؤرخ .
    - الجوائي: المؤرخ.
    - أبو صالح الأرمني: المؤرخ.
- القاضى أبو الحسن على بن النعمان : (المتمون سنة ٣٧٤ هـــسنة ٩٨٤م) ،
   الفقيه .
  - يعقوب بن كلس: المؤرخ، والفقيه، والوزير.
- القاضى الشريف أبو محمد عبد الله العثراني الديباجي: ( المتوفى بالإسكندرية سنة ٧٧٥ هـ سنة ١٧٦ م)، الشاعر ، الناثر ، المحدث ، الراوية .
  - الرشيد أحمد بن على: الشاعر.
- عمار بن على الموصلي : صاحب كتاب ( المنتخب في عملاج العين ) وهو من
   علماء عصر الحاكم بأمر الله .
  - القاصر : الرسام على عهد وزير المستنصر اليازوردي .
    - ابن عزیز: الرسام علی عهد المستنصر.

القطامى: الرسام على عهد المستنصر.

وهى كوكبة من الأسماء لطائفة من الأعلام المذين ازدانت بهم الحياة الفكرية والأدبية والثقافية في العصر الفاطمي . فإذا ما كورنا ما سبق أن ذكرناه من أن هذه الأسماء إنها هي مجرد أمثلة فقط لا غير ، استطعنا أن ندرك القدر الكبير والجليل الذي كان لهذه القسمة من قسمات مجتمع مصر والقاهرة في ذلك الحين .

## الأزهسر:

وثانى الأدلة التى نسوقها على عمق وأصالة الحركة الفكرية والأدبية في ذلك العصر ، هو قيام المؤسسات العلمية العملاقة التى شهدتها العاصمة يومئذ وبخاصة الأزهر ، كجامعة فكرية وثقافية .

فلقد بدأ كمسجد جامع للمدينة الجديدة ، بدأ جوهر الصقلى في إنشائه في العام التالى مباشرة للفتح ولبدء تأسيس القاهرة ، وبالتحديد في ٣ من أبريل سنة ٩٧٠ م - ( جمادي الأولى سنة ٩٥٣ هـ) . وتم بناؤه وافتتح للصلاة بعد عامين في ٢٤ من يونيو سنة ٩٧٢ م - ( رمضان سنة ٣٦١ هـ) (١).

وبعد أن حضر الخليفة المعز لدين الله إلى القاهرة ، بدأت بوادر أولية لاستخدام هذا المسجد الجامع في أداء دور فكرى وعقائدى منسجم مع أيديولوجية الدولة الجديدة . فجلس به قاضى القضاة على بن النعمان في شهر صفر سنة ٣٦٥ هـ. (سنة ٩٧٥م) ليملي على الدارسين والجمهور مختصراً أعده والده في فقه الشبعة ، سمى " بالاقتصار " . وحضر حلقات الدرس هده جمع عظيم من الدارسين والجمهور (٢) . فإذا ما توفى على بن النعمان في سنة ٤٧٢هـ.. (سنة ٤٨٨م) ، واصل عملية التدريس هذه أخوه القاضى " محمد بن النعمان " المتوفى سنة ٩٨٩م ) .

<sup>(</sup>١) سيرة القاهرة : ص ١٣١ والقاهرة : تاريخها وآثارها : ص ١٧.

<sup>(</sup>٢) اتعاظ ألحنفا : ص ٢٢٧.

حتى إذا كان عهد الخليفة العزيز ، وتولى يعقوب بن كلس منصب الوزارة ، نجده يشير على مولاه أن يجول هذا المسجد إلى جامعة علمية وفكرية للعلوم العقلية والنقلية ، الدينية والدنيوية ، ولفكر الشيعة على وجه الخصوص ، وأشرف ابن كلس على ترتيب كل ذلك ، فوظف فيه العلماء والقراء ، ورتب لهم الأسوال والنفقات .

حتى إذا كان عام سنة ٩٨٨م، وجدناه قد استوى جامعة مكتملة الأسس والمقومات و « أصبح قبلة للعلماء . . وللطلاب دون تمييز في الجنس أو اللغة أو الطبقة ، (١) . وأخذ يؤتى ثهاره في الحياة الفكرية في ذلك التاريخ . وليس أدل على أهمية الدور الفكرى الذي أداه الأزهر في الحياة العقلبة للقاهرة الفاطمية ، من ذلك الموقف الذي وقفه منه صلاح الدين الأيوبي عندما أحدث بمصر الانقلاب السلفى « السنى » بعد عهد الفاطميين ، إذ أوقف الدراسة في هذه الجامعة لفترة من الزمن (٢) ، حتى تمكن من تغيير مناهجها وعلومها والقائمين على التدريس فيها ! وحتى استطاع أن يجعل من المدارس السنية التي فتحها منافسًا خطيرًا لهذا المعهد العتيد .

### دار الحكمة:

أما دار الحكمة ، فهى تلك الأكاديمية العلمية والفكرية التى أنشأها الحاكم بأمر الله فى سارس سنة ١٠٠٥م - (جمادى الآخرة سنة ٣٩٥هـ) ، فى المكان المواجع لمسجده - ( الجامع الأقمر ) - بدرب الخضيرى بباب التبانين . ولقد ضمت هذه الأكاديمية فروعًا وأقسامًا للقرآن وعلومه ، وللعلوم الدينية ، وللقلك، والطب ، والنحو وعلوم اللغة المختلفة .

<sup>(</sup>١) الحاكم بأمر الله : ص ١٥٥ ، ٣٦٣ وسيرة القاهرة : ص ١٢١ .

<sup>(</sup>٢) سيرة القاهرة: ص ١٣٢.

ولقد كانت دار الحكمة هذه تشمل مناهجها في بداية عهدها تدريس العلوم الدينية والإلهية من وجهتى النظر الشيعية والسنية ، ثم اقتصرت فيها بعد على الاتجاه الشيعى ، تمشيًا مع اتجاه الدولة الفكرى ، وبسبب من المشكلات التى حدثت بين فقهاء هذين الاتجاهين في ذلك الحين .

ولعل من أروع ما ازدانت به هذه الأكاديمية ، هى تلك المكتبة التى تعد بحق من مفاخر مصر الفاطمية وعاصمتها القاهرة ، والتى جمع فيها الحاكم بأمر الله كل ما حوت القصور والدور من كتب ومجلدات ، حتى لقد تجمع فيها من الكتب قما لم ير مثله لأحد قط من الملوك ، وأباح ( الحاكم بأمر الله) ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم ، وقيام بوقيف قطاع كبير من أملاكه الخاصة عليها وعلى الأزهر وعدد من المساجد الأخرى . وبذلك ، أجريت الأرزاق والمرتبات على علماء دار الحكمة وموظفيها وخدمتها ، ووضعت تحت يد الباحثين والدارسين والنساخ ، المحامة والأحار ، سائر ما يحتاجون إليه من الأوراق والأقلام والمحابر والأحبار.

وأخلت هذه الأكاديمية تقوم في الحياة الفكرية بدور هام وعملاق. وبعد قيامها بسنوات ثمانية (سنة ٤٠٣ هــسنة ١٠١٢م)، أخذ علماؤها المتخصصون يحضرون إلى مجلس الحاكم في القصر للمناقشة والمناظرة والجدل والمدارسة، كل جماعة متخصصة في فرع من فروع العلم على حدة، وكانوا جميعًا يعودون وقد خلع عليهم الحاكم ومنحهم العطايا والهبات (١٠).

فإذا علمنا أن دار الحكمة هذه قد أفردت فيها للنساء الدارسات مجالس خاصة بهن ، وأضفنا إلى هذه الحقيقة الهامة ذلك الدور الكبير الذى قامت به فى ميدان الدعوة الفاطمية ، بل والسلطة السياسية باليمن ، زمن الخليفة المستنصر ، السيدة الحرة الملكة قروى بنت أحمد الصليحى \* ، والتى كانت حاكمة وداعية من دعاة الفاطميين باليمن ، بل ومشرفة على توجيه الدعاة في هذه المنطقة وما

<sup>(</sup>۱) راجع خطط المقریزی: جـ۱ ، ص ۵۵۸ ، ۵۵۹ . والحاکم بأمر الله : ص ۱۵۵ ، ۲۶۳ ؛ ۲۹۰ ، ۲۹۰ ـ ۳۹۳ .

يليهامن الجنوب الشرقس ، والتي بعث إليها المستنصر بالكثير من الرسائل ـ (السجلات) ـ التي تبرز دورها هذا وتزكيه ـ إذا وضعنا هذه الحقيقة في الاعتبار ، أدركنا أن الدعوة الشيعية الفاطمية ، في نظرتها للمرأة ودورها ، إنها كانت تفرق بين نوعين من النساء :

أولها: ويشمل أغلبية النساء ، اللاتي يتخذن من مؤهلات الأنوثة سلاحًا يضمن به وسائل العيش والراحة والرفاهية في هذه الحياة ، وهن الرباب الحجال المحجبات المخدرات ، اللاتي تتفق في النظرة إليهن الدعوة الشيعية الفاطمية ، في عصرها مع النظرة الشرقية التقليدية بوجه عام .

وثانيها: ويشمل القلة من النساء اللاتى جلسن فى دار الحكمة للدرس والتفقه وتحصيل العلوم، أو انخرطن فى سلك الدعاة والمبشريين والمنظمين السياسيين، أو اضطلعن بمسئوليات سياسية وإدارية فى جهاز الحكم، كما حدث للسيدة الحرة الملكة «أروى بنت أحمد الصليحى »، التى يتحدث عنها المستنصر فيقول: إننا «أخرجنا إياها من زمرة ربات الحجال إلى سياسة الدولة وتقديم الرجال، لما لمع نور إيهانها، ونيتها وإيقانها، وأنها بالزهد معروفة، وبالتقى موصوفة، فاستحقت ما خولناها، وقامت بشكر ما أنلناها، ورعت أحوال المؤمنين رعاية الدعاة، وسلكت فى تربيتهم مسلكا قارب مسلك المداة الإدارا.

ولقد بلغ من أهمية هذه الأكاديمية العلمية والفكرية ، ومن اهتمام الحاكم بأمر الله بها ، وتركيز الجهد الفكرى للدولة فيها ، أن ذبل دور الجامع الأزهر بجانبها ، حتى وجدنا في سجل الوقفية التي وقف بها الحاكم بعض أملاكه يمصر والقاهرة على هذه الدار ، والأزهر ، وبعض المساجد الأخرى ، والذي حوى تفاصيل المنصرف على الأزهر ، وجدنا في هذه التفاصيل كل ما يتعلق بالأزهر كمسجد جامع ، لا كجامعة علمية وفكرية ، كما كان في عهد الخليفة العزيز (٢).

<sup>(</sup>١) السجلات المستنصرية: ص ٧٦. تقديم وتحقيق د. عبد المنعم مجاهد ط. المقاهرة ١٩٥٤ م. (٢) راجع نص هذه الوقفية في ذيل كتاب ( الحاكم بأمر الله ) : ص ٣٩٣\_٣٩٣ .

وإذا كان الأزهر ، كجامعة فكرية ، قد تعرض للإغلاق المؤقت من قبل صلاح الدين الأيوبى ، بعد زوال النظام الشيعى الفاطمى ، فإن دار الحكمة هذه قد تعرضت للإغلاق الدائم والمؤبد من قبل الأيوبيين . بل لقد أغلقها الأفضل بن بدر الجهالى ، في عهد نفوذ الوزراء والجند ، وخضوت صوت العقبل والفكر ، في مرحلة اضمحلال الدولة الفاطمية . ثم أعيدت مرة أخرى في زمن الخليفة الآمر بأحكام الله في ربيع الأول سنة ١٧٥ هـ (سنة ١١٢٣م) في مكان آخر غير مقرها الأول ، بجسوار القصر الشرقمي الكبير (١) ، ولم تنزل عامرة حتى زائمت الدولة الفاطمية .

### ألمكتبات:

وثالث الأدلة التى نسوقها على عمق الحركة الفكرية وأصالتها فى مصر الفاطمية ، يتمثل فى تلك المكتبات التى جمعها الفاطميون ، وبدلوها للعلياء والمتعلمين ، والتى اعتبرها المؤرخون السلفيون ، المعادون للفاطميين ، إحدى عجائب الدنيا فى ذلك الحين ، « لأنه لم يكن فى جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من المدار التى بالقاهرة » . فإذا علمنا أن قائل هذا هو المؤرخ الأيوبي المعادى للفاطميين المعروف بأبي شامة ، وأنه قد قال هذا القول قبل أن يدخل التتار بغداد فيخربوا مكتباتها بها يقرب من المائة عام ، علمنا عظم هذه الثروة الفكرية التى اشتملت عليها مكتبات القاهرة فى ذلك التاريخ ، حتى قيل إن مكتبة القصر الفاطمي وحدها ، عندما حكم صلاح الدين الأيوبي ، وبعد أن نبب منها الكثير زمن الشدة المستنصرية ، « كانت تحوى ألفى ألف وستهائة ألف كتاب ( أى

<sup>(</sup>۱) خطط المقريزي: جدا ، ص ٤٤٥.

فإذا أردنا أن نعلم أبعاد قول المؤرخين بأن الفاطميين قد جعلوا مكتباتهم مبذولة لسائر الناس من سأئر الطبقات ، وكيف تغلبوا ، عن طريق قسم النسخ الذي أقيم في دار الحكمة ، على عقبة انعدام الطباعة في ذلك العصر ، وقلة عدد نسخ الكتاب المخطوط ، فإنه يكفينا أن نعلم أن هذه المكتبة قد ضمت من كتاب تاريخ الطبري ١,٢٠٠ نسخة مخطوطة ، إحداها بخط عمد بن جرير الطبري نفسه ، وإحدى نسيخ هذا الكتاب قد اشتراها الخليفة العزيز بهاثة دينار . . وأن كتاب «العين » للخليل بن أحمد كانت له فيها شلاثون نسخة ، إحداها بخط المؤلف . . وأن الجمهرة بن دريد ؟ كانت لها فيها مائة نسخة . . كما كان في هذه المكتبة المن الكتب الكبار . . ما يشتمل كمل كتاب على خمسين أو ستين مجلدًا ٢ . . وأنمه قد كانت لهذه المكتبة ﴿ خزائنها في القصر ، مرتبة البيوت ، مقسمة الرفوف ، مفهرسة بالمعروف " . . وأنه بعد مرور خس سنوات على زوال الدولة الفاطمية ، وفي سنة ٥٧٢ هـ ـ ( سنة ١٧٦ م) ، وبعد أن مورست فيها أعمال السلب والنهب من قبل الجنود " الغز " والأتراك ، وتحت إشراف الأمير بهاء الدين قراقوش " وهو تركى لا خبرة له بالكتب ، ولا دراية له بأسفار الأدب ، ، وبعد أن احتال عليه الدلالون والسهاسرة ، فأوهموه أن ا هذه الكتب قد عاث فيها العث . . ولا غني عن تهويتها ونفضها . . وكان مقصود دلالي الكتب أن يوكسوها ويخرموها ويعكسوها ٥ ، حتى تتول إليهم بأبخس الأثبان ، بعد كل هذا الذي حدث لهذه المكتبة طوال خس سنوات ، ينقل أبو شامة عن عاد الديس الكاتب ، محمد بن محمد الأصفهائي ، المؤرخ ، صاحب ( البرق الشامي ) ، أنه رأى \* خزائنها مشتملة على قريب مائة وعشرين ألف مجلدة ، مؤبدة من العهد القديم مخلدة ، وفيها بالخطوط المنسوبة ما اختطفته الأيدى ، واقتطعه التعدى ، وكانت كالميراث مع أبناء الأيتام ، يتصرف فيها بشره الانتهاب والالتهام ، ونقلت منها ثمانية أحمال إلى الشام ! ، (١).

<sup>(</sup>۱) كتباب الدوضتين : جسد ١ ، ص ٥٠٧ ، ٦٨٦ ، ٦٨٧ . واتعباظ الحنف : ص ٢٧٨ .

قإذا علمنا أن بقايا هذه المكتبة ، مثلها مثل بقايا قصور الفاطميين ، قد ظلت معروضة للبيع مدة عشر سنوات ، أدركنا عظم هذا الصرح الفكرى الدى بنته مصر الفاطمية ، وفداحة الحسارة التي أصابته عندما زالت هذه الدولة من الوجود.

### فن الكلمة:

ورابع الأدلة على عمق هذه الحركة الفكرية والأدبية وأصالتها في مصر الفاطمية ، ذلك المستوى الذي بلغه النثر الأدبى ، ووصلت إليه كتابة الرسائل ، وجودة صناعة الإنشاء تحت إشراف عدد من الأدباء والعلماء الذين أشرفوا وقاموا بالعمل في ديوان الإنشاء ، من أمثال ابن الخلال والقاضى الفاضل ، وغيرهما من الذين تولوا عمل هذا الديوان.

ونحن إذا أردنا أن ندرك ، في إيجاز ، المستوى الأدبى الرفيع الذي وصلت إليه هذه « الصناعـة » الأدبية ، فها علينا إلا أن نقراً حمديث القاضى الفاضل عنها ، وعن قصته معها ، عندما يقول :

إنه قد « كان فن الكتابة فى زمن بنى عبيد ( الفاطميين ) غضًا طريًّا . وكان لا يخلو ديوان المكاتبات من رأس يرأس مكانا وبيانا ، ويقيم لسلطانه بقلمه سلطانا ، وكان من العادة أن كلاً من أرباب الدواوين إذا نشأ له ولمد وشدا شيئًا من علم الأدب ، أحضره إلى ديوان المكاتبات ليتعلم فن الكتابة ، ويتدرب ويرى ويسمع . . فأرسلني والمدى ، وكان إذ ذاك قاضيًا بثغر عسقلان ، إلى المديار المصرية فى أيام الحافظ ، أحد خلفائها ، وأمرنى بالمسير إلى ديوان المكاتبات . وكان المدي يرأس به فى تلك الأيام ، رجلا يقال له ابن الخلال . فلما حضرت الديوان ، ومثلت بين يديه ، وعرفته من أنا وما طلبى ، رحب بى وسهل ، ثم الديوان ، ما الذى أعددت لفن الكتابة من الآلات ؟ فقلت : ليس عندى شى مسوى قال: ما الذى أعددت لفن الكتابة من الآلات ؟ فقلت : ليس عندى شى مسوى أنى أحفظ القرآن العزيز وكتاب الحماسة . فقال : وفي هذا بلاغ . ثم أمرنى

بملازمته . فلما ترددت إليه ، تدربت بين يديم . ثم أمرني بعد ذلك أن أحل شعر الحياسة ، فحللته من أوله إلى آخره ، ثم أمرني أن أحله مرة ثانية فحللته » (١).

وإذا كانست الرسائل السنة والستون ، التي ضمها كتاب ( السجلات المستنصرية ) ، إنها تقدم لنا نموذجًا لجودة \* فن الكتابة ؛ النثرية فى ذلك العصر ، فإن الأمر اللذى لا شك فيه أن الشعر العربي في مجتمع القاهرة الفاطمية قد بلغ درجة من الرقة والجذالة تستحق الدراسات المفصلة ، في غير هذا المكان ، وتستوجب منا هنا وقفة سريعة نعطى فيها النهاذج الصغيرة والجيدة الدلالة على صدق ما نقول . .

فالشاعر أبو المعالى عبد العزيز بن الحسين بن الحباب يتحدث عن السيوف ، نيقول :

ومِن عجبِ أَنَّ السَّيوفَ لديهمُ تحيضُ دماءً ، والسُّيوفُ ذكورًا وأعجبُ مُن ذا أنَّها في أَكُفَّهم تَاجِّجُ نارًا ، والأكفُّ بحورا

كما يخلف لنا سخرية شعربة لاذعة من طبيب لم يحسن علاجه من الحمى التي أصابته ، فيقول فيه :

وآصلُ بَليَّتى مَن قد غزائى طبيب بُ طِبُّه كغراب بَيْنِ آتى الحمَّى وقد شاغت وباخت ودبُّرها بتدبير لطيف وكانت نوبةً في كل يدوم

مِنَ السَّقْم اللَّكِعُ بعسكرينِ يُفرِقُ بين عسافيتي وبيني فرزَدُ لها الشباب بسيختين حكاه عن اسنانِ، أو احنين، فصيَّرها، بحذق ، نوبتين (٢) ا

<sup>(</sup>١) كتاب الروضتين : جدا ، ص ٤٨٨ . ٤٨٨ .

<sup>(</sup>٢) المصدر السابق : جدا ، ص ٣٦٠ ٣٦٠ .

كما كان للشعر الغنائى فى بحالس اللهو والطرب والصفاء بالقاهرة فى ذلك العصر ، مكان رحب وموقع جيل ، وهذه جارية جيلة حسناء ،شتراها من بغداد تميم أبن الخليفة المعز لدين الله ، وعاشت فى القاهرة ، بعد أن خلفت لها حبيبًا عاشقًا فى بغداد . فإذا كانت إحدى الليالى ، غنت للأمير فى مجلس طربه شعرًا قالت فيه :

وبَدَا له مِن بعدِ ما انتقلَ الهَوى بَرقٌ سَأَلَقَ يبدو لحاشيةِ اللواء ، ودونهٔ صعبُ اللَّهُ فبدَا لينظرَ كيفُ لاحَ ، فلمْ يُطقُ نظرًا إليهِ فالنارُ ما اشتملتُ عليهِ ضلوعُهُ والماءُ ما سَمَ

بَرقٌ نَالَقَ مِن هنا لَمَانُه صعبُ النَّرى متمتعٌ أركانه نظرًا إليه وشدَّهُ أشجانه والماءُ ما سَمَحتْ بهِ أَجْفانه!

حتى إذا طرب الأمير ، وسألها ماذا تربد ، طلبت منه السياح بأن يغنى هذا الشعر في ربوع بغداد. وبعد وجوم ، أجابها إلى طلبها ، فها كان منها عندما اقترب الشعر في ربوع بغداد إلا أن غافلت حراسها وهربت إلى حيث الحبيب العاشق (١٠١).

ولولا الحرص على الإيجاز الذي يضرضه حيز هذه الدراسة ، لقدمنا من شعر القاهرة في ذلك العصر الناذج العديدة والجيدة التي تعكس المستوى الرفيع الذي بلغه الشعر يمومها ، على يمد كثير من الشعراء المذين سبقت إشارتنا إلى أسهاء بعضهم منذ حين .

#### 泰 泰 梅

وإذا كانت هذه الأدلة التي سقناها هنا على أصالة الحركة الفكرية العربية في مصر الفاطمية ، إنها تجسد أبعاد هذه الحركة طولاً وعرضًا وعمقًا ، فإن هناك ملاحظة نبود أن نختم بها هذه الجزئية من جزئيات هذه الدراسة ، تتعلق بمدى شمول هذه الخياة الفكرية العربية لكل المواطنين ، الذين سكنوا المعاصمة يومئذ ببوجه خاص ، أو قطنوا مصر يومها على وجه العموم . وبمعنى مباشر : هل

<sup>(</sup>١) البداية والنهاية : جد١١ ، ص ٢٩٢ ، ٢٩٤ .

كانت هذه الحياة الفكرية شاملة للمسلمين والأقباط؟ أم كانت قسمة للمجتمع المسلم فقط من دون المصريين المسيحيين؟

ونحن نستطيع أن نقطع فى الإجابة بأن هذه الحياة الفكرية الخصبة والغنية ، إنها كانت قسمة للمجتمع المصرى بأكمله . وذلك ، لأن عملية « تعرب » هذا المجتمع ، كانت قد تمت تمامًا ، واكتملت ملاعها فى القرن « العاشر الميلادى ، حتى كان رجال الكنيسة القبطية يضطرون إلى وضع كتاباتهم باللغة العربية ، لكى يفهمها أهل دينهم .

وقد كان أكبر عامل في انتشار الثقافة العربية في مصر ، بتلك الدرجة الناجحة التي لم تبلغها سابقتها الهلينية ، هو نزوح العرب الرحل إليها ، نزوحا تدريجيًا واسع النطاق ، واستقرارهم بها (١) .

وبذلك ، نستطيع أن نقول : إن قيام القاهرة كعاصمة للخلافة الفاطمية ، بعد أن كانت مصر مجرد ولاية عباسية أو أموية ، إنها كان مرحلة هامة من مراحل تعميق عملية التعريب التي كانت قد تحت بالفعل . ومن ثم ، فإن حركة مصر الفكرية التي نتحدث عنها ، إنها كانت من العمق والأصالة والشمول لكل سكانها ، بحيث يمكن أن نعتبرها إطارًا قوميًّا ساهم مساهمة قوية في بلورة الشخصية المصرية العربية منذ ذلك الحين . بل لقد كانت هذه المرحلة من مراحل تاريخ مصر ، هي الإيذان بنضج الشخصية العربية لمصر ، بعد أن فتحها العرب المسلمون قبل هذا التاريخ بعدة قرون .

 <sup>(</sup>۱) جورج كيرك ( موجز تباريخ الشرق الأوسط ) : ص ٣٧ . ترجمة عمر الإسكندري ط .
 الألف كتباب ، وعمد عهارة ( فجر اليقظة القومية ) : ص ١٧٤ ، ١٧٥ ط . القاهرة سنة ١٩٦٧ م .

# الفصل المفامس<u>ين</u> "الدّولة"الفاطِمية في مصرّ

• دراسة بجهاز « الدولة » الفاطمية الذي حكم البلد. . وملاعه الإداريسة . . وجهازه العسكري . .

## جهسكاز الدولة الفاطمية

على الرغم من أن نظام الشورى الإسلامى ، الذى أشاد به القرآن الكريم ، فيها يتعلق بالإدارة السياسية وطبريقة اختيار الحكام ، والبت في معضلات الأمور ، والذى طبقه المسلمون في عصر الحلفاء الراشدين ، على الرغم من أن هذا النظام قد تحول إلى خرق محزقة على يد الدولة الأموية ، ثم على أيدى العباسيين ، حينها أصبح الأمر « ملكا » ونظامًا ملكيًا ، وافترق معناه ومبناه عن معنى « الحلاقة » ، أصبح الأمر " ملكا السرغم من أن الكثير من قسات النظام الملكى المعتمد على الوراثة والاستبداد، قد شابت نظم الحكم الإسلامية في هاتين الدولتين ، فإننا نستطيع أن نقول : إن القاعدة التي قامت عليها نظرية « الإسامة » عند الشيعة والفاطميون أحد تياراتها الفكرية والسياسية .. إنها تمثل أوضيح تجسيد لهذه النظرية الإقطاعية الشهيرة عن « الحق الإلهي ، والتقويض » المنبوح للإمام من قبل الله ، والذي لا يجده ولا يقيده المحكومون بأى نوع من الحدود أو أي قدر من القيود.

فلقد كنان الإمام لندى هذه الفرقة الإسلامية ، التي تأثرت كثيرًا ، وفي هذا الموضوع ببالذات ، بالتراث الإقطاعي للأكاسرة الفرس السناسانيين ، إنها يصير إمامًا تبعًا للوصية التي أوصى بها الرسول عليه الصلاة والسلام إلى جدهم على بن أبي طالب، والتي تسلسلت وانتقلت، بالحلول تارة ، والتجسد أخرى ، في نسله ،

<sup>(</sup>١) ابن خلدون : المقدمة ص ١٦٥ ط. القاهرة سنة ١٩٠٤م.

حتى وصلت ــ لدى الفاطميين ــ إلى عبيد الله المهدى ( ٩٠٩ ـ ٩٣٤م ، ٢٩٧ ـ ٣٢٢ هـ ) ، أول خلف الهمم بالمغرب ، ثم القائم ( ٩٣٤ ـ ٩٣١م ، ٣٢٢ ـ ٣٢٢هـ) ، ثم المنصور (٩٤٦ ـ ٩٥٢ م ، ٣٣٤ ـ ٤٤١هـ) ثم المعز لدين الله ، ١٤٤٥ الغذ القاهرة عاصمة ، ومصر مركزاً لهذه الخلافة الشيعية الإسماعيلية الفاطمية .

وليس معنى ذلك ، أن جهاز الدولة اللذى عرفته مصر لم يكن يعرف التسلسل الوظيفى ، ولا أنه كأن فرديًّا بشكل مطلق ، وضيق الحدود والإطار . وذلك ، لأن ترامى أطراف الدولة ، واتساع المهام الداخلية والخارجية أمامها ، قد فرضا عليها السير في الطريق الطبيعي للسياسة والإدارة والعسكرية .

### الجهاز السياسي والإداري

شهدت مصر نظامًا سياسيًّا وإداريًّا : معقـدًا ومنشابكًا ، ضم جهازًا سياسيًّا وإداريًّا تمثل في عدد من الدواوين ( الوزارات ) ، أهمها :

أ .. ديوان الإنشاء والمكاتبات.

ب .. ديوان الجيش والرواتب ، وكان قاصرًا على الموظفين المسلمين .

جــ ديوان الجهاد ، وكان خاصا بالأساطيل البحرية ، حربية كانت أم مدنية .

د ... ديوان المجلس ، وكان مختصًا بالمراجعة على الدواوين الأخرى .

هــديوان النظر ، وكان مختصًا بشنون الأموال .

و .. ديوان التحقيق ، وكانت اختصاصاته هي المقابلة على الدواوين المختلفة .

ز \_ ديوان الأوقاف والأحباس .

حد ديوان المواريث والفرائض.

ط \_ ديوان الصعيد ، وكان مختصًا بمصر العليا.

ى ـ ديوان أسفل الأرض ، وكان مختصًا بالوجه البحري .

الشديوان الثغور ، وكان مختصًا بالمواني البحرية والنهرية .

ل .. قاضي القضاة ، وهو بمثابة وزير العدل ، ومن خلفه قضاة النواحي والأقاليم .

م ... داعي الدعاة ، وكان بمثابة فيلسوف الدولة ، والقائم على نشر أيديولوجيتها .

ن المحتسب ، وكانت له الولاية في كثير من أمور التجارة الداخلية ، والنظافة ، والنظافة ، والتنظيم العمراني ، والإشراف على مراعاة الاخسلاقيات التي استقر المجتمع على احترامها .

س ـ ديوان الشرطة ، وكانت مقسمة إلى الشرطة العليا ، وتختص بالقاهرة ، والشرطة السفلى ، لمدينة مصر (١٠).

كما عرف النظام السياسي للدولة الفاطمية منصب " الوزارة " ، وكان الوزير يمثمل الرجمل الشائمي في المدولة ، بعد أمير المؤمنين ، ولم الإشراف والتنفيل والتفويض في كل ما يتعلق بسائر الدواوين .

كما عرف هذا النظام السياسي كمذلك السلاطين ، و الملوك ، المذين يوليهم الخلفاء حكسم إقليم من الأقاليم . وقد كانوا محملون هذه الألقاب الفخمة ، أو يقتصر على مجرد تلقيبهم بالعمال والولاة تبعًا لشأنهم ولشأن ذلك الإقليم ، وتبعًا لما عليه الخلفاء من قوة أو ضعف .

أما عن العملاقة بين كل هذه الأجهرة والرعية من جمانب ، وبين أمير المؤمنين من جانب آخر ، فإننا نستطيع أن نلخصها في أنه قد كانت للخليفة حقوق قبل الملوك والسلاطين والوزراء والولاة ومديرى الدواوين والرعية بأكملها . وكانت هذه الحقوق تتمثل في السمع والطاعة في كل شيء من جانبها . كما أنه لم يكن للرعية أية حقوق على هولاء الخلفاء !! وكان على السرعية أن تطيع وأن تعطى ، وعلى

<sup>(</sup>١) الحاكم بأمر الله : ص ٣٢٦ ـ ٣٤١ . واتماظ الحنفا : ص ٣١٦ .

الوزراء أن يدبروا السياسة وأن يتولوا الجيابة للأموال من البرعية ، وعلى العيال هم كذلك أن يقوموا بالجبابة للأموال من البرعية . أما الملوك ، فلقد كان لهم تدبير السياسة في أقاليمهم ، والطباعة لأمير المؤمنين . وداعي الدعاة حميد الكرماتي يلخص هذه القضية بقوله : « إن طاعة الإمام جامعة للملوك والرعايا ، والرعايا تجمع الإعطاء والعاعة ، وإن الوزيس يجمع السياسة والجباية ، والجباية جامعة للوزراء والعيال ، وإن الملك يجمع الطباعة والسياسة ، والعامل يجمع الجباية والإعطاء ، وإن الملك يجمع الطباعة والسياسة ، والعامل عجمع الجباية والإعطاء ، وإن المعاء جامع للعيال والرعايا ، وإن السياسة مشتركة » (١).

### الجهاز العسكري

كما شهدت مصر نظامًا عسكريًّا: تمثل في الجيوش القبلية والمملوكية المجلوبة من بسلاد غير عربية ، والتي لعبت دورًا كبيرًا في فتوحات الفاطميين ، ثم آل بها الأمر إلى السيطرة على مقدرات هذه الدولة وتحويلها إلى شكل فارغ بلا مضمون ، كما سيأتي فيها بعد .

ولقد كانت طبقات رجال الجيش الفاطمي ، تتدرج في مراتب ثلاث :

أ ـ الأمراء ، وهم بمثابة مقدمي الجيوش .

ب ـ خواص الخليفة ، وهم رؤساء حرسه الخصوصى .

جــ طوائف الأجناد المختلفة .

كما كان يطلق على قائد الجيش لقب " الإسفهسلار" ، وهو اصطلاح عسكرى يتضح معناه عندما نعلم أن مقطعه الأول : " إسف " هو كلمة فارسية معناها : مقدم ، وأن مقطعه الثانسي والأخير : " سلار" هو كلمة تركية معناها : عسكر ، فهو إذن مقدم العسكر وقائد الجيش .

<sup>(</sup>١) الحاكم بأمر الله: ص ٣٢٨، (نقلاً عن كتاب (راحة العقل) لحميد الذين الكرماني: ص ٢١٤).

ولقد كانت طوائف الجند ، التى اعتمدت عليها الدولة الفاطمية فى فتوحاتها ، والتى شاركت كذلك فى الصراعات الداخلية التى شهدتها فى عصر اضمحلالها ، كثيرة ومتعددة بتعدد القبائل المغربية والنواحى والأقبائيم التى امتد إليها نفوذ الفاطميين . فهناك أجناد من كل من " كتامة » و " معمورة » و " زويلة " ، وهى قبائل مغربية . وهناك كذلك " البرقية " ، نسبة إلى منطقة برقة . وهناك الأجناد «الروم » و " الترك » و " السديلم » و " السودانيون " ، نسبة إلى هذه الأجناس . ومناك كذلك " الجودرية " ، أتباع جودر ، و " المعلوفية " ، أتباع عطوف ، و"اليانسية " ، أتباع يانس ، وكذلك " الوزيرية » و " المحمودية " و " الباطلية المناصورية » وغيرهم كثير .

وإذا كان الجيش الفاطمى ، الذى فتح مصر ، قد بلغت عدته مائة ألف مقاتل ، فإن الحروب التى ظلت قائمة بين الدولة الجديدة وأعدائها الخارجين ، قرامطة كانوا أم عباسيين أم صليبين ، قد احتفظت لهذا الجيش بالكثير من النفوذ والحجم الكبير ، حتى جاء وقت أسلمت فيه الدولة الفاطمية روحها للقوة والجندية التى أخذت تتحكم فيها منذ أن تولى بدر الجالى السلطة والسلطان ، زمن الخليفة المستنصر سنة ١٠٧٥م سنة ٢٦٨ه ه . .

ولقد بلغ تعداد الجيش الفاطمى ، زمن سلطان « الوزير » طلائع بن رزيك ، الذى لقب نفسه بلقب « الملك الصالح » ، حسب رواية المقريزى ٢٦، ٢٠٠ جندى ، من بينهم ، ١٠٠ ، ١٤ من الفرسان . وذلك ، غير القوة البحرية التى بلغت أحيانًا ١٠٠ قطعة خاصة بالقتال والجيش ، وذلك غير خمسين مركبًا بحريًّا مدنيًّا كانت عملوكة الأمير المؤمنين (١) .

<sup>(</sup>۱) المصدر السابق : ص ۲۶۱ ـ ۳٤۱ . وكتاب الروضتين : جـ ۱ ، ص ۲۰۸ ، وتاريخ العرب : جـ ۳ ، ص ۷٤۲ .

# الفصل السادس عن محاكم بأمراستد

دراسة عن مغزى تصرفات الحاكم بأمر الله . .
 وماذا كانت تعنى المراسيم والقوانين التي أصدرها ، تلك التي الهمه البعض بسببها بالمرض والجنون . .

## فيهمكات هسامتة وطربينة

وقحن نعتقد أنه لا يمكن لعين الباحث أن تتصفح مراحل حساة مصر الفاطمية، دون أن يسترعى انتباهها تلك القسمات التي ميزتها في عهد الحاكم بأمر الله ( ٩٩٦ - ١٠٢١م) . كما لايمكن الكتابة عنها ، إلا إذا تناولت هذه الصفحة من حياتها بالدرس والتقييم ، خصوصا أن شخصية الحاكم ، وأسلوبه في إدارة شئون الحكم ، والمراسيم الشهيرة التي أصدرها ، والتي عاد فألغس بعضًا منها ، كل ذلك قد جعله في أذهان الكثيرين شخصية غامضة وشاذة ومهوشة التفكير .

ولقد تراوحت وجهات نظر المؤرخين والباحثين حيال هذه الشخصية ما بين اعتبارها مصابة بضرب \* من ضروب المالنخوليا ، وفساد التفكير \* ، كها ذهب إلى ذلك يحيى الأنطاكي في تباريخه والنويري صباحب (نهاية الأرب) ، وإلى أنه كان مصابًا \* بعضاف في دماغه \* ، كها ذهب إلى ذلك المقريزي في خططه ، وإلى اعتباره مجنوبًا ، ولكن مصلحًا كذلك ، أو مصلحًا ، ولكن على طريقته الخاصة ، أو مكافحًا للانحلال \* الشامل الذي سرى إلى مجتمعه بقوانين بوليسية صارمة ، وأحيانًا غريبة شاذة \* (1).

<sup>(</sup>۱) راجع آراء الأنطاكس، والنويرى، وميللر، ودوزى، فى كتاب ( الحاكسم بأمر الله ) : ص ١٦٧ . ١٦٨ . ١٦٧ .

ونحن نرى أن شخصية الحاكم بأمر الله ، شخصية تاريخية قد أصابها الكثير من المؤرخين من الظلم والتعسف في التفسير والتحليل ، من قيمل الكثير من المؤرخين والباحثين . بل ونرى أن هذا الظلم قد انسحبت أذياله على القاهرة ومصر ، فبدت في ثوب من السخرية والاضطراب ، وجو من الإجراءات التي لا رابط لها ولا منطق وراءها ، خلال فترة حكم هذا الخليفة التي امتدت ربع قرن من الزمان . ومن شم، كانت لموقفتنا هذه عند هذه الصفحة من كتاب حياة مصر أهمية كبرى للإقصاف وجلاء حقيقة الأحداث والمراسيم التي وقعت وصدرت في تلك السنوات .

ونحن نعتقد أن ترتيب أحداث هذه الفترة ، والنظر إليها على ضوء أيديولوجية المدولة الفياطمية ، وعلى ضوء الأحداث التي عاصرتها ، ومن خلال مراعباة العلاقيات المتشابكية والمعقدة التي تقوم عيادة بين القوانين والمراسييم وبين البيئة والأحداث والأشخاص والصراعات ، هو المنهيج الكفيل بتبديد الجزء الأكبر من الغموض والغرابة والاستغراب التي تصيب القارىء عندما تدفع إليه أحداث هذه السنوات ركامًا مختلطًا دونها ترتيب أو تبويب أو تفسير .

# شخصية الحاكم . . والتحديات التي واجهته :

1 \_ فالحاكم بأمر الله ، الذي ولمد في ٢٣ من ربيع الأول سنة ٣٧٥ هـ (١٣ من أغسطس سنة ٩٨٥ م) ، كانت تبدو عليه منذ حداثة سنة مظاهر التفوق والذكاء وقوة الشخصية ، وقسات الإنسان المتميز عن الأشباء والأقران ، وكان صاحب اهتمامات ثقافية وفكرية مبكرة ، لا في مجال الفلسفة والتشيع والفلك والتنجيم فقط ، كما اشتهر عنه ، بل وفي مجال التذوق الأدبى للشعر والنثر والمشاركة في مجالسهما ومخالطة أعلامهما في ذلك الحين (١).

<sup>(</sup>١) المصدر السابق: ص ٩١.

Y \_ ولقد كانت خلقة الحاكم بأمر الله تساعده كذلك على الإحساس بأنه شخص متميز عن الآخرين ، وتؤكد له هذا الإحساس . فلقد وصفته الروايات المعاصرة له ، فقالت : "كان منظره مثل الأسد . وعيناه واسعتان شهلاوان (بخالط سواد عينيه زرقة ) \_ وإذا نظر إلى الإنسان يرتعد لعظم هيبته . وكان صوته جهيرًا مخوفا . . ولقد كان جماعة يعمدون للقائه في أمور تضطرهم إلى ذلك ، فإذا أشرف عليهم سقطوا على الأرض وجلا منه ، وفحموا عن خطابه ! ه (١) .

٣ ـ وعندما بويع هذا الصبى المتفوق ، ابن الأحد عشر عامًا ، بالخلافة في ٢٨ من رمضان سنة ٣٨٦ هـ ( سنة ٩٩٦ م ) ، وجد نفسه واقعًا تحت أسر شديد وثقيل يتمثل في سلطة \* برجوان \* الصقلبى ، الذي تقف خلفه الأجناد الصقالبة ، و\* الحسن بن عهار \* زعيم قبيلة كتامة ، الذي تشد من أزره جنود كتامة الأشداء الكثيرون ، وذلك بالإضافة إلى نفوذ ثالث الأوصياء ، قاضى القضاة محمد بن النعهان ، والذي كان أقل هؤلاء الثلاثة سلطة وسلطانًا .

وليت الأمر قد وقف عند هذا الحد . بسل لقد شهد الحاكم احتدام الصراعات القبلية ، والنزاعات القائمة على المصالح المادية بين كل من « برجوان » و « الحسن ابن عيار » . وتجاهل الفريقان وجوده كأمير للمؤمنين . وانضم إلى « برجوان » كل الناقمين على قبيلة كتامة من أمشال « بنجوتكين » ، و « ابن الصمصامة » . وقبل أن يمر عام على تنصيب الحاكم خليفة ، وصلت الحرب الباردة بين الفريقين إلى حرب ساخنة ، دارت رحاها بالقاهرة في شعبان سنة ٣٨٧ هـ.. (سنة ٩٩٧ م ) ، وهي الحرب التي انتهت بهزيمة كتامة ، وعلو نجم « برجوان » والصقالبة ، واستبدادهم بكل أمور البلاد .

٤ ـ ولقد تصرف " بسرجوان " بإزاء الحاكم ، بعد أن خلا له الجو، أو خيل إليه ذلك ، تصرفات آذت مشاعر الخليفة الشاب ، وجرحت كرامة الفتى الـذى

<sup>(</sup>١) المسدر السابق: ص ١٠٤.

يستشعر فى نفسه التفوق الـذاتـى ، فضلاً عما تمنحه إمـارة المؤمنين ، والبيعـة بالخلافـة ، وصلاحيات « الحق الإلهى » ، مـن شحنات عـزة وكرامة ، تجعـل من تصرفات « برجوان» معه مواد متفجرة وحارقة تنتظر اشتعال الفتيل . .

و يكفى أن نعلم أن \* برجوان \* قد حجب الحاكم في هذه الفترة عن الناس ، وقطع صلته بجهاز الدولة ، وصيره معزولاً في قصره . ولقد بلغ الحاكم عنه أنه يلقبه \* بالوزغة \* الصغيرة \_ ( الحية ) وبلغ به الاستهتار والتعالى حدًّا جعله يتوجه إلى الحاكم راكبًا وثانيًا رجله على عنق فرسه ، وجاعلاً بطن قدمه ، وفيها الحف ، قبالة وجه الحاكم !!.

ومن هنا ، فإننا لا نجد غرابة فى أن يهدبر الحاكم اغتيال البرجوان ، هذا ، وأن يعلى ينفذ ذلك فى ١٦ من ربيع الثانى سنة ٣٩٠ هـ ( إبريل سنة ١٦٠ م) ، وأن يعلى هذا الحدث الهام من قدر المغاربة ونفوذهم ، ويقلل من شأن الصقالبة والأتراك فى البلاد .

٥ ـ ولقد كانت الخطوة الهامة ، التي خطاها الحاكم بعد إزاحة « برجوان » من طريقه ، متمثلة في ذلك المرسوم الذي أذاعه على الناس ، والذي طلب فيه من الشعب أن يتعامل معه مباشرة ، والذي يمنع فيه أن يكون جهاز الدولة أو أي من زعهائها حاثلاً بين الإمام وبين الاتصال المباشر بالجهاهير . وهو المرسوم الذي يقول فيه :

المعاشر من يسمع هذا النداء من الناس أجمعين . إن الله ، وله الكبرياء والعظمة ، أوجب اختصاص الأئمة بها لا يشركها فيه أحد من الأمة . فمن أقدم بعد قراءة هذا المنشور على مخاطبة أو مكاتبة لغير الحضرة المقدسة ، سيدنا ومولانا، فقد أحل أمير المؤمنيان دمه . فليبلغ الشاهد الغائب ، إن شاء الله 1 \* (١).

<sup>(</sup>١) المصدر السابق: ص ١٠١.

### لمن كان القتل ؟

٢ ــوإذا كان قتل الحاكم لبرجوان قد حدث في شهر ربيع الثاني سنة ٣٩٠هـ، فإن ذلك لا يعنى أنه كان ينتصر بمذلك للمغاربة والكتاميين ضد الصقالبة والأتراك ، اللين قادهم برجوان في إذلال المغاربة منذ سنة ٣٨٧ هـ، لأن الحاكم إنها كان يبغى إزالة كل مراكز النفوذ والعصبيات والتكتلات القبلية والجنسية التي كافت تزخر بها العاصمة ، بسبب من تعدد أجناس الأجناد ، ولذلك ، فإننا نراه يبدأ منذ سنة ، ٣٩ هـ في سلسلة من الاغتيالات الفردية ، وللجازر الجهاعية ، التي تستهدف القضاء على خطر الفوضى التي تهددت البلاد ، وخطر سيطرة الأجناد على مقدرات الأمور فيها :

- ففى ١٤ من شوال سئة ٣٩٠ هـ (أكتوبر سنة ١٠٠٠م) ، دبر اغتيال الحسن ابن عيار ، زعيم كتامة ، وقائد الكتاميين والمغاربة .
- وفى سنة ٣٩١هـــ (سنة ١٠٠٠م) ، دبر قتل مؤدبه : أبى التميم سعيد بن سعيد الفاروقي .
- وفى سنة ٣٩٢ هـــ (سنة ١٠٠١ م)، دبسر قتل أبسن أبى نجدة ، الـــنى كان يتولى ديوان الحسبة.
- وفي محرم سنة ٣٩٣ هسسه ( سنة ١٠٠٢م ) ، دبر قتـل أبـي على الحسـن بـن عسلوج ، وكان من أكابر المباشرين لشئون المال في الدولة . وأبو ه عسلوج ، هو الذي ولاه المعز خراج البلاد في سنة ٣٦٤ هـ ( سنة ٩٧٤ م ) .
- وفى جمادى الأولى سنسة ٣٩٣ هـ.. ( مسارس سنسة ٢٠٠٤م) ، دبر قتبل و زيره المسيحى فهد بن إبراهيم ، الذى خلف فى تبركته نقدًا سائلًا بلغ ما حمل منه إلى الحاكم ١٠٠، ١٠٠ دينار ، رفض الحاكم أن يأخذ منها شيئاً ، وردها الآخيه قائلًا : ٩ أنا لم أقتله على مال ٢ .
- وفى رجب سنة ٣٩٣ هـــ (سنة ٢٠٠١م) ، دبر قتل أبى طاهر محمود بن النحوى، وكان يتولى أعمال الشام ، مشهورًا بالظلم والتعسف والتجبر.

حتى إذا جاءت سنة ٣٩٤هـ (سنة ١٠٠٥م)، نجد الحاكم يشن فيها نشاطاً واسعًا، يتخلص عن طريقه من أكثر أعيان الدولة وكبار رجالاتها، وكذلك من عدد كبير جدًّا من أتباعهم وأنصارهم (١). وفي هذا العام نفسه، أصدر الحاكم مرسومًا ينكر فيه على الناس مخاطبته بلقب «مولى الحلق أجمعين» (١).

# مراسيم الحاكم الشهيرة:

٧ ــ فإذا جاءت سنة ٣٩٥ هـ. ، وجدنا الحاكم بأمر الله يصدر فيها عدة
 مراسيم نستطيع أن نقسمها إلى مجموعتين متيايزتين :

الأولى: المراسيم الاقتصادية ، المتعلقة بالإصلاحات النقدية التى ثبت بها سعر الدينار على أساس ٢٦ درهمًا من الدراهم المزيدة ، وكذلك المتعلقة بضبط المكاييل والموازين (٣). ولقد كانت لهذه المراسيم الاقتصادية علاقة بالمجاعة التى حدثت بمصر في ذلك العام ، بسبب نقصان مياه النبل ، حيث ارتفعت الأسعار واضطربت المعاملات وأسعارها » (١٤).

والثانية: تلك المراسيم الاجتهاعية والأخلاقية والمدينية ، التى نسجت حولها وحول إصدارها الكثير من أساطير الغموض ، والتى ألقت على عصر الحاكم تلك الظلال التى تساهم هذه السطور في إزالتها وكشفها من فوق وجه مصر الفاطمية في ذلك التاريخ . ونحن نستطيع أن نقسم هذه المراسيم إلى مجموعات ثلاث ، منها ما هو خاص بالسلمين السلقيين ، ومنها ما هو خاص بالمسلمين السلقيين وهالسنيين، ومنها ما هو عام وشامل لكل المواطنين .

<sup>(</sup>١) المصدر السابق : ص ١١١-١١١،

<sup>(</sup>٢) المصدر السابق : ص ١٦٠ .

<sup>(</sup>٣) المبدر السابق: ص ١٥٧، ١٥٨.

<sup>(</sup>٤) إغاثة الأمة بكشف الغمة : ص ١٤.

# مراسيم أهل الذمة:

فأما ما يتعلق بأهل الذمة ، والمسيحيين منهم على وجه الخصوص ، فلعل التضييق عليهم والشدة التى أصابتهم في الملابس ، والمركب ، وتحريم بيع العبيد والإماء المسلمين لهم ، والتى تصاعدت حتى أدت إلى هدم كتائسهم بها فيها كنيسة القيامة ، التى هدمها الحاكم سنة ١٠٠٩م ( سنة ٢٠٠٩هم ) ، إنها كانت رد فعل لذلك النفوذ والتسلط الذي اكتسبه الكثيرون من أغنيائهم والمتولين للسلطة منهم ، وهو الأمر الذي كان محل انتقاد شديد من جمهور المسلمين المصريين .

ولقد كان «العزيز »، والدالحاكم ، متزوجًا من مسيحية ، أنجبت له أبنة أسمتها «سيدة الملك » . وكانت هذه الزوجة ، وبعدها البنت ، ذات نفوذ واسع في البلاط الفاطمي . وكان لهذه الزوجة أخوان من البطاركة : « أرسانيوس » ، الله عينه العزيز مطرانًا للقاهرة سنة ٥٧٥هــ (سنة ٥٨٥م) ، ثم عين بطريركا للطائفة الملكانية بالإسكندرية سنة ٥٣٠هــ (سنة ١٠٠٠م) ، و « أريسطيس ، الذي عينه العزيز بطريركا للملكانية في بيت المقدس سنة ٥٧٥هـ (سنة ٥٩٨٥م).

ولقد سبق للخليفة العزيز أن استوزر الوزير المسيحى عيسى بن نسطورس ، وكذلك ولى أمور الشام للوزير اليهودى منشا إبراهيم القنزاز ، « فاعتز بها النصارى واليهود ، وآذوا المسلمين . فعمد أهل مصر وكتبوا قصة جعلوها في يد صورة عملوها من قراطيس ، فيها : بالذى أعز اليهود بمنشا ، والنصارى بعيسى ابن نسطورس ، وأذل المسلمين بك ، إلا كشفت ظلامتى !! وأقعدوا تلك الصورة على طريق العزيز ، والرقعة بيدها . فلها رآها أمر بأخذها ، فإذا الصورة من على طريق العزيز ، والرقعة بيدها . فقبض عليهها ، وأخذ من عيسى بن نسطورس قراطيس ، فعلم ما أريد بذلك ، فقبض عليهها ، وأخذ من عيسى بن نسطورس تلثهائة « ألف دينار ، ومن اليهودى شيئًا كثيرًا » (١).

<sup>(</sup>١) اتعاظ الحنفا: ص ٢٩٧ . والبداية والنهاية : جد ١١ ، ص ٢٣٠.

ولقد سنجل لنا الشاعر المصرى الحسن بن بشر الدمشقى تذمر الشعب من هذا النفوذ ، الذى مكنت منه الدولة الفاطمية الوزراء المسيحيين ، وذلك عندما هجا الخليفة « العزيز » ويعقوب « ابن كلس » و « الفضل » القائد ، بقوله :

تنصَّرُ، فـالتَّنصُّرُ ديـنُ حـنَّ عليـهِ زمـانُنـا هـــذا يَـــدُلُّ وقــلُ بشــلاثــةِ عــزُوا وجَلُّــوا وعطَّـلُ مـا سِـواهـم فهــوَ عطْـلُ فيعقــوبُ السوزيـرُ أبُّ ، وهـــذا العزيزُ ابنٌ ، وروحُ القُذْسِ فضلُ (١٠) ا أ

بل لقد أفسحت الخلافة الفاطمية الميدان ، ميدان الوزارة ، لغير عبسى بن نسطورس من المسيحيين، فتولاها منهم كذلك « فهد بن إبراهيم » الذى لقب بالرئيس ، ومنصور بن عبدون ، الذى لقب بالكافى ، وزرعة بن نسطورس الذى لقب بالشافى (٢٠). فإذا جاء الحاكم بأمر الله ، فأصاب بمراسيمه تلك الحريات الدينية والمدنية التى كان يتمتع بها الذميون ، واستجاب بذلك للمشاعر العامة التى كانت سائدة فى ذلك الحين ، فإننا يجب ألا نتخذ من ذلك الموقف ذريعة نرميه بسببها بها رماه الكثير من المؤرخين والباحثين . فهو لم يكن فى موقفه هذا أكثر من حاكم يعالى خطأ بخطأ آخر ، ويسلك فى سبيل إزالة النفوذ غير الطبيعى الذي منحته الدولة للذميين سبل ردود الأفعال العنيفة ، التى كانت إحدى سمات ذلك العصر فى كل المجتمعات .

# مراسيم أهل السنة:

أما قلك المجموعة من المراسيم ، التي أصدرها الحاكم في سنة ٣٩٥هـ خاصة بالمسلمين السلفيين ، فإنها تتلخص فيها هو صوجه ضد الاتجاه السلفي مباشرة ، مثل ذلك المرسوم الشاذ الذي أصدره بسبب أبي بكر وعمر وعثمان وعائشة ومعاوية وغيرهم من الصحابة ، الذين وقفوا بشكل أو بآخر موقفًا لا يتفق مع ما

<sup>(</sup>١) اتعاظ الحنفا: ص ٢٩٨. (٢) الحاكم بأمر الله: ص ٣٣٠.

تعتقده الشيعة في الوصية التي أوصى بها الرسول إلى على بن أبى طالب . ولقد أمر الحاكم بإثبات هذا السب على الجوامع والمساجد والمقابر والدور والحوانيت ، وصبغ لوحاته بالذهب والأصباغ ، وأمر الناس بالجهر به ١١

وبرغم أننا نعتبر أن مرسوم الحاكم هذا هو أمر شاذ ، فإننا لا نصفه بسببه بالجنون ، ولا بها هو أكثر من الغلو في التشيع لأجداده أهل البيت . وهو غلو لم تكن الأطراف السنية والسلفية بريئة من مثله في تلك العصور ، فنحن نعلم أن تفضيل معاوية بن أبى سفيان على على بن أبى طالب ، كثيرًا ما استخدمه الساخطون على الحكم الفاطمي والمقاومون له ، كعامل يستفزون به الفاطمين . ولقد حدث في رمضان سنة ٣٦١ هـ (سنة ٩٧١م) أن خرج بعض الرعية في الشوارع جماعات ينادون : « معاوية خال المؤمنين ، وخال على » (١٠).

كما نعلم أن أول من استن سنة سب الصحابة هذه هم الأمويون ، حيث سبوا عليًا وأنصاره وشيعته على المنابر . كما نعلم كذلك أن من فرق الشيعة فرقة تسمى الرافضة ، وأن البعض يعلل تسميتها بهذا الاسم ، لأنها ترفض الاعتراف باحقية أبسى بكر وعمر وعثمان في الخلافة ، وأحقيتهم في التقدم على أمير المؤمنين على بن أبي طالب في هذا المقام . وهكذا نجد أن الشذوذ الذي ننظر به إلى مرسوم الحاكم بأمر الله هذا ، والاستغراب الذي نستقبله به ، إنها هما من آثار أفقنا المستنير وعصرنا الحديث . أما ذلك العصر ، فإنه لم يكس بالمستغرب فيه ، ولا بالشاذ ، أن يصدر حاكم من الحكام أمثال هذه المراسيم .

وعلى كل ، فإن هذا المرسوم قد أدى إلى إحداث تمرد شعبى ، وضجة جاهيرية ، أدت إلى إلغائه وبحو آثاره في سنسة ٣٩٧هـ (١٠٠١م) . وعندما استمرت قلة من متعصبي الشيعة في بمارسة هذا العمل ، حدث تحرك جاهيري ، وقامت فتنة في سنة ٤٠٣هـ (سنة ١٠١٢م) ، وتظاهر الناس أمام قصر الحاكم

<sup>(</sup>١) اتعاظ الحنف : ص ١٣١ . وهم يشيرون إلى أن لمعاوية أختًا تزوجت الرسول وصارت أمَّا للمؤمنين ، فهو إذن خال للمؤمنين ، وفيهم على بن أبي طالب ! ا

بأمر الله. فاستجاب لمطلبهم . ولم يكتف هذه المرة بتحريم سب السلف من الصحابة ، بل وأصدر مرسومًا يطلب من الناس الترحم عليهم (١)!

كيا أصدر الحاكم في سنة ٣٩٥هـ بعض المراسيم ، التي انطلق في إصدارها من فوق أرضية الغلو للتشيع ، والتي وإن أضحكت كل الذين قرءوا عنها في كتب التاريخ ، إلا أنها معروفة الدوافع ، وإن اتصفت هذه الدوافع بالحدة والنزق والبعد عن الموضوعية إلى حد كبير . فطلب تحريسم أكل « الملوخية » ، لأنها كانت عبوبة لمعاوية بن أبي سفيان! و « الجرجير» ، لأنه كان أثيرًا ومنسوبًا إلى السيدة عائشة! ، و « المتوكلية » ، التي كانت تنسب للخليفة السلفي المحافظ المتوكل العباسي!!

# الراسيم العامة:

أما تلك المراسيم التي بدأ الحاكم في إصدارها في سنة ٣٩٥هم، والتي لم تكن موجهة إلى الدميين ولا إلى المسلمين السلفيين، وإنها كانت شاملة لكل الرعايا والمواطنين، وبعيدة عن قضايا العقيدة والطائفية، فإنها كثيرة ومتعددة، كها أنها جميعها منطقية ومفهومة. بل إنها لا تعدو أن تكون محاولات إصلاحية أراد الحاكم بها إنقاذ المجتمع الذي أخذ الترف والبدخ والتحلل بخناقه. ونحن نعتقد أنه لو كانت أساليب العصر قد أسعفت الحاكم بأمر الله بوسائل للإصلاح أكثر لينًا ورفقًا، وأشد فاعلية وجاذبية، لما انتهت الحلافة الفاطمية إلى الوقوع فريسة في يد الجند والوزراء المستبدين بعد وفاته بنحو نصف قرن من الزمان.

فلقد أصدر عدة مراسيم تستهدف المحافظة على الصحة العامة للمجتمع والأفراد ، مشل تحريم أكل الترمس المتعفن » و « الدلينس » \_ (أم الخلول ) \_ والسمك الذي لا قشر له . كها أمر بقتل الكلاب الضالة ، والتي لا تستخدم في الصيد أو الحراسة .

<sup>(</sup>١) الحاكم بأمر الله: ص ١٤٦.

كما أصدر عدة مراسيم تستهدف المحافظة على الأخلاق ، ومعالجة موجات الانحلال التي بدأت تشيع بسبب الترف في الأوساط الغنية ، أو تنتشر بسبب المجاعات في أوساط الفقراء . فحرم عمل « الفقاع » وبيعه ، وكان من مسكوات ذلك العصر ، كما كان شربه مكروهًا من الإمام على بن أبي طالب . حتى إذا كان شهر وبيع الأول سنة ٩٩٩هـــ ( سنة ٨٠٠١م) ، أصدر مرسومًا بمنع عمل «النبيد والمؤر » . ولقد كان الحاكم عدوًا لكل أنواع المسكرات ، ولقد جاء في سنجل أصدره بتحريم المسكرات في سنة ٠٠٠ هـ ( سنة ١٠٠٩م ) أن « المسكر هو مجمع السيئات ، والقائد إلى قبائح الأفعال والسوءات » .

ويما يدل على أن المراسيم ، التى أصدرها الحاكم بأمر الله لمعالجة انتشار المسكرات ، إنها كانت تستهدف العلاج للمجتمع ، لا العنت والإرهاق للأفراد ، وأن غاياتها وأهدافها كانت في غاية الوضوح ، أنه قد حدث عندما حرم النبيذ وأمر بإتلافه ، أن تقدم إلى قاضى القضاة تاجر أتلفت بضاعته من الزبيب والعسل ، وقال : إن بضاعته كانت لصنع الحلاوة لا الخمر ، وطالب الحاكم بالتمويض ، وقيمته ألف دينار ، فقبل الحاكم الخصومة ، وطلب اليمين من التاجر ، فحلف ، فحكم له بهاله ، ودفعه له الحاكم (1).

ويما يـؤكد أن الحاكم إنها كان يـواجه مـوجة مـن التحلل الخلقى فى المجتمع القاهـرى فى ذلك الحين ، ذلك المرسوم الـذى أصدره فى سنة ١٠١ هـ. (سنة القاهـرى فى ذلك الحين ، ذلك المرسوم الـذى أصدره فى سنة ١٠١ هـ. والذى يحرم اللهو والغناء ، وخاصة بالنسبة للنساء ، والذى يحرم الاجتهاعات الماجنة التي كانت تعقد فى الخلاء بالصحراء . وعند ذلك ، هوجمت أماكن البغاء بشدة ، وأزيلت دورهم وأوكارهم ، وطهرت منهم أحياء المدينة ، وكانوا ينبثون فى معظم جنباتها.

<sup>(</sup>١) المصدر السابق: ص ١٥٩ ( نقلاً عن مخطوط كنسى عنوانه: سير البيعة المقدسة ).

كها سبق أن حرم على الناس دخول الحهام إلا بمشزر يستر بعض عوراتهم ، وحرم على غير الباعة والمشترين للأرقاء دخول أسواقهم ، حتى يمنع العابثين من تخضية الوقت فى التمتع بالجوارى بحجة الشراء . كها طلب من تجار الرقيق عدم الجمع بين الغلمان والإماء فى مكان واحد ، وأن يفرد لكل منهم يوم خاص بالبيع والشراء .

## الحاكم والنساء:

أما قصة مراسيم الحاكم بأمر الله مع نساء القاهرة ، ومنعمه إياهن من الخروج من البيوت ، وطلبه إلى صانعي أحذيتهن عدم صنع شيء منها ، فإنها قضية ذات صلة وثيقة بذلك المستوى من التحليل الخلقي الذي ساد القاهرة في ذلك الحين ، وبكثرة بائعات الموى اللاتي انتشرت بضاعتهن في معظم جنبات العاصمة . ولقد بدأ الحاكم في سنة ٩٥هـ ، بمرسوم يجرم تبرج النساء وكشف وجوههن في الطرقات العامة أو خلف الجنائز . ولما لم يكن ذلك كافيًا في صد التيار المنحل يومها ، فلقد أصدر مرسومًا في سنة ٢٠٤ هــ (سنة ١٠١١م) يمنع النساء من زيارة المقابر ، \_ ( وهي عادة أدخلها الفاطميون في مصر ، وليست من الإسلام في شيء ) \_ ، والاستحام في الحامات العامة ، والركوب مع الرجال في الحفلات العامة على شاطىء النيل . ولما لم ينجم ذلك كـذلك في بلوغ الغايمة المرجوة ، أصدر في شعبان سنة ٤٠٤ هــ ( سنة ١٠١٤م) مرسومًا يحظر على النساء مغادرة دورهن . واستثنى مـن ذلك من لهن مصلحة حيـوية في الحروج ، مثل المتظلمات للشرع ، ومن لهن شكايات ، والذاهبات لأداء قريضة الحج ، والمسافرات لظروف قاهرة ، والجواري الذاهبات إلى سوق الرقيق ، والقابلات ، وغاسلات الموتى ، والأرامل اللاتي يتعيشن من بيع الغزل ، وأمثالهن . وأمر أن يكوب خروجهن برقاع ( بطاقات ) يصرفها لهن مدير الشرطة (١) أ

<sup>(</sup>١) راجع في هذه المراسيم الحاكم بأمر الله: ص ١٥٩، ١٦١، ١٣٢، ١٣٤.

وحتى نستطيع أن نطمئن تمامًا ، ويطمئن معنا اللذين تراودهم الشكوك حول أهداف الحاكم بأمر الله من هذه الحملة ، التي استهدفت النساء الماجنات ، والتي أدت إلى منع خروج النساء إلا للضرورات القصوى ، وحتى نتأكــد من أن الغاية الأخلاقية وعجاربة الفساد والتحلل الخلقس إنها كانتاهما القصد من كل ذلك ، فإننا نسوق هنا رواية المؤرخ السلفى ابن كثير ، الذي يتحدث كيف أن الحاكم بأمر الله قد \* جهز نساء عجائز يستعلمن أحوال النساء لمن يعشقس أر يعشقهن بأسهائهن وأسهاء من يتعسرض لهن ، فمن وجد منهن كذلك أطفىأها وأهلكها . . وغرق خلق من الرجال والنساء والصبيان عمن يطلع على فسقهم . فضاق الحال ، واشتد على النساء وعلى الفساق ذلك ، ولم يتمكن أحد منهن أن يصل إلى أحد إلا نادرًا ، حتى إن امرأة كانت عاشقة لرجل عشقًا قويًّا كادت أن تهلك بسببه ، لما حيل بينها وبينه ، فوقفت لقاضي القضاة ، وهو ا مالك بن سعد الفارقي ا وحلفته بحق الحاكسم لما وقف لها واستمع كلامها . فرحمها فوقف لها ، فيكت إليه بكاء شديدًا ، مكرًا وحيلة وخداعًا ، وقالت له : أيها القاضي ! إن لي أخَّا ليس لى غيره ، وهو في السياق ، وإنى أسألك بحق الحاكم عِليك لمَّا أوصلتني إلى منزله لأنظر إليه قبل أن يفارق الدنيا ، وأجسرك على الله . فرقُّ لها القاضي رقة شديدة ، وأمر رجلين كانا معه يكمونان معها حتى يبلغاها إلى المنزل الذي تسريده . فأغلقت بابها ، وأعطت المفتاح لجارتها ، وذهبت معهم حتى وصلت إلى منزل معشوقها ، . وعشدما حضر زوجها ، وعلم القصمة ، ذهب إلى القاضى وأخبره أن امرأته ذهبت إلى معشوقها ، لأنه ليس لها أخ . وهدد القياضي برفع الأمر إلى الحاكم . فذهب القاضي إلى الحاكم ، وبكي ، وأخبره الخبر ، فأمر بإحضارهما على حالهما ، هي ومعشوقها ، فوجداً ﴿ متعانقين سكاري ﴾ ، فأحرقت المرأة ، وضُرب الرجل حتى هلك (١) ا

<sup>(</sup>١) البداية والنهاية : جد ١١ ، ص ٣٥٣ ، ٣٥٣.

#### الإصلاحات الاقتصادية:

فياذا ما جاءت سنة ٣٩٧ هـــ (سنة ١٠٠٦م)، واضطربت الأحوال الاقتصادية ، بسبب ذلك الاضطراب الذي أصاب نقد البلاد ، حيث بلغ سعر الدينار أربعة وثلاثين درهما بدلاً من ستة وعشرين درهما ، « وارتفع السعر ، وزاد اضطراب الناس ، وتوقفت الأحوال ، إذا بالحاكم يجرى من الإصلاحات النقدية ما يحاول به تخفيف حدة هذا الاضطراب .

ولكن عام ٣٩٨ه... (سنة ١٠١٧م)، يأتمى بها هو أشد وأفدح، فتستمر الشدة بسبب نقصان ماء النيل، حتى قعظم الأمر، وكظ الناس الجوع، فاجتمعوا بين المقصرين، واستغاثوا بالحاكم في أن ينظر لهم، وسألوه أن إلا يهمل أمرهم. فركب حماره، وخرج من باب البحر، ووقف وقال: أنا ماض إلى جامع راشده... ( جنوبي الفسطاط) ... فأقسم بالله لثن عدت فوجدت في الطريق موضعًا يطؤه حماري مكشوفًا من الغلة الأضربين رقبة كل من يقال لى: إن عنده شيئًا منها، ولأحرق داره وأنهبن ماله اثم توجه وتأخر إلى آخر النهار، فها بقي أحد من أهل مصر والقاهرة وعنده غلة حتى حملها من بيته أو منزله وشونها في من أهل مصر والقاهرة وعنده غلة حتى حملها من بيته أو منزله وشونها في الطرقات. وبلغت أجرة الحهار في النقلة الواحدة دينارًا! . فامتلأت عيون الناس، وشبعت نفوسهم، وأمر الحاكم بها يحتاج إليه في كل يـوم، ففرضه على أرباب الغلات بالنسيئة .. ( الأجل ) .. وخيرهم في أن يبيعوا بالسعر الـ لمي يقرره، بها فيه من الغائدة المحتملة لهم، وبين أن يمتنعوا فيختم على غلاتهم ولا يمكنهم من بيع من الفائدة المحتملة لهم، وبين أن يمتنعوا فيختم على غلاتهم ولا يمكنهم من بيع من الغائدة المحتملة لهم، وبين أن يمتنعوا فيختم على غلاتهم ولا يمكنهم من بيع شيء منها ، إلى حين دخول الغلة الجديدة، فاستجابوا لقوله وأطاعوه أمره ه (١٠).

وإذا كنا نُعْجَب بهذا الحزم الذى استخدمه الحاكم بأمر الله مع الذين كانوا يخفون الغلال ويحتكرون أقوات الشعب ، بينها المجاعة والغلاء يأخذان بخناق الجهاهير ، وإذا كنا تلمح في رواية المقريزي هذه حقيقة هامة ، مؤداها أن

<sup>(</sup>١) إغاثة الأمَّة بكشف الغمة: ص ١٧ ، ١٨ .

المجاعات التى شهدتها مصر ، لم يكن مرجعها فقط نقص النيل وقلة مياهه ، وإنها كان مردها كذلك سوء توزيع الثروة ، الذى يجعل المجاعة من نصيب الأغلبية ، والغلال التى زحمت طريق الحاكم وغطت أرضه ، والتى ظهرت فى ساعات قليلة ، من نصيب القلة المترفة \_ إذا كنا نعجب بهذا الحزم الذى عالج به الحاكم بأمر الله هذه المحنة ، فإن إعجابنا به يزداد عندما نعلم أنه لم يكن حازمًا فقط مع هؤلاء المحتكرين من أهل الغنى واليساد ، وإنها كان حازمًا كذلك مع أهله وذويه ، بل ومع نفسه أيضًا .

- ففى سنة ٣٩٨ هــ (سنة ١٠٠٧م) ، أبطل المكوس والمؤن التى كانت توخذ من المسافرين عن الغلال والأرز . وحدد الأسعار ، ومنع خزن ما ينزيد على الحاجة من الغلال .
- رفى سنة ٣٩٩ هـــ (سنة ١٠٠٨م) ، صادر أموال أهله ( زوجته ، وأمه ، وأخته ، وغالته ، وغالته ، وغالته ، وغالته ، وغالت ، وغالت ، وخواصه وجواريه ) ، وسائر إقطاعاتهن وأموالهن بمصر والقاهرة ، وكانت جملة عظيمة ، ثم عاد وعدل عن هذه المصادرة فيها بعد . ولعل عدوله عنها قد كان مرتبطًا بانفراج الشدة التي تعرض لها الناس .
- وف سنة ٤٠٠ هــ (سنة ١٠٠٩م) ، أبطل ما كان يؤخذ على أيدى القضاة من « الحُمُر » و « الفطرة » و « النجوى » ، وهمى ضرائب كانت تختص بها مجتمعات الفاطمين.
- وفي سنة ٤٠٣ هـ. (سنة ١٠١٢م) ، وزع الحاكم من أمواله الخاصة على الناس ، كما أسقط عن الناس مكوس الحسبة ، وأصدر مرسومًا يحرم تقبيل الأرض بين يديه ، أو تقبيل ركابه أو يده ، أو الانحناء لمخلوق ، باعتبارها بمدعة رومية ، والاكتفاء (بالسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبسركاته ، وألا يصلى عليه فى المكاتبات ، بل يدعى له بها تيسر أ .
- وق المحرم سنة ٤٠٤ هــ (سنة ١٠١٣م) ، أعتق الحاكم كل رقيقه ، بالقاهرة وخارجها ، ووهبهم كـل ما كانوا يملكون زمن رقهم ! كما رفع المكوس من

جهات كثيرة ، وأبطل مكوس الرطب ودار الصابون ، وكان مبلغ الأخير و ، ٠٠ و ١٦ دينار (١). حتى لقد قال عنه الأنطاكي إنه « أظهر من العدل ما لم يسمع به ، ، . ولم تمتد يده قط إلى أخذ مال من أحد . . ولقد قتل من رؤساء دولته وأهل مملكته ممن هم من الأموال العظيمة ما لا يقع عليه الإحصاء لكثرته ، فلم يتعرض لأخذ مال أحد منهم ، لا سيها من كان له وارث ، ومن لا وارث لهم كانت تركتهم تستوهب منه فيهبها على الأكثر . وأسقط جميع الرسوم والمكوس كانت تركتهم تستوهب منه فيهبها على الأكثر . وأسقط جميع الرسوم والمكوس التي جرت العادة بأخذها ، وتقدم إلى كيل من أخذ منه شيء . . بغير واجب . . في أيامه وأيام أبيه وجده أن يطلق ما قبض منه » (٢) . كها أنشأ الحاكم ديوانيا سهاه « المديوان المقرد » تودع فيه لحساب الشعب الأموال المصادرة من تركات البدين قتلهم بسبب جشعهم أو طمعهم في السلطان والنفوذ ، ولم يكن شيء من أموالهم هذه يذهب إلى حسابه الخاص ، ففارق صنيعه هذا صنيع الحكام الذين سبقوه أو عاصروه أو جاءوا من بعده ! .

<sup>(</sup>١) الحاكم بأمر الله : ص ١٣٢ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩.

<sup>(</sup>٢) المصدر السابق: ص١٥٨.

	•	

# الفصّل الس<u>ّتابع</u> عرالمجاعات الحروب المظالم الاجماعية

دراسة صن مصر الشعب والأكثرية والكادحين
 . وآثار المظالم الاجتهاعية ، والمجاعبات ، والحروب على حياة النباس والمجتمع في ذلك التاريخ . .

# الوجت الأخرللعم لة

على أن هذا الغنى والترف والبذخ ، الذى سبق حديثنا عنه ، والذى أشرنا إلى أنه كان قسمة بارزة وملحوظة ، من قسهات الحياة في مصر الفاطمية ، لم يكن من نصيب الجميع ولا هو بالذى كان مبذولاً لجميع الناس . بل إن الشدائد والمحن، وسوء التنظيم والإدارة ، والظلم الاجتماعي قد جعل من كل ذلك وقفًا وحكرًا على القلة الغنية في المجتمع ، كها جعل الفقر والقاقة والبؤس الشديد من نصيب الأغلبية الساحقة من المواطنين .

ولقد لمس مؤرخنا الفد المقريزي هده الحقيقة ، عندما تحدث عن المجتمع المصري ، فقسمه إلى طبقات وفئات سبعة هي :

- ١ أهل الدولة ، وهم الذين يتولون السلطة والسلطان ، وبيدهم مقاليد الأمور
   فيها ، مدنيين كانوا أم من كبار العسكريين .
  - ٢ \_ أهل اليسار والغني من التجار والملاك وأولى النعمة من أهل الرفاهية .
- ٣ المشتغلون بالأعمال التجارية المتوسطة من الباعة ومتوسطى الحال من التجار ، وهم الذيبن يسمون بأصحاب البَنز والبَزازين ، ويلحق بهم الحرفيون المالكون لأدوات إنتاجهم ، الذين يسمون بأصحاب المعايش ، وكانوا يسمون كذلك بالسوقة ، نسبة إلى الأسواق وإلى قيامهم بصنع أدوات المعيشة وبيعها .
- ٤ ـ الفـــلاحون، \* أهل الفلـــح \* وهم أهــل الزراعــات والحرث ، سكان القــرى
   والريف .

- الفقراء ، ومعدود فيهم أغلب الفقهاء وطلاب العلم وكثير من الجنود (١٠).
- ١ سالصناع ، أصحاب المهن اللذين لا يملكون سوى قوة عملهم يؤجرونها
   للاخرين .
- ٧ ـ ذوو الحاجة والمسكنة ، وهمم السؤال اللذين يتكففون الناس ويعيشون منهم (٣).

شم يحدد المقريرى موقف كل طبقة أو فئة من هذه الفشات والطبقات من الشدائد التي كانت تمر بالمجتمع ، وموقف هده الشدائد من هذه الطبقات ، فيقول : إنه في المحن والشدائد يستفيد الصنفان الأول والثاني . أما الثالث ، فإنه فينفق ما اكتسبه فيها لا بدله منه من الكلف ، وحسبه ألا يستدين لبقية حاجته ، ويقنع كها قال الأول :

# علَى أنَّنى راضٍ بَانْ أَخْمِلَ الْهَوَى وَأَخْلُصَ منه لا عليَّ ولا ليا

أمنا بقية الأصنباف ، فهم بين فنانٍ ، ومينت ، ومُشتهِ للمنوت في مثل هنذه الظروف (٣)! أ

فإذا كان أهل الدولة ، وأهل البسار ، هم المستفيدين الحقيقيين من الشدائد والمجاعات التي كانت تم بالبلاد ، وإذا أخرجنا من حسابنا متوسطى الحال من التجار والباعة والحرفيين ، اللين تُحقُقُ لهم دخولهم الاكتفاء الذاتي ، فإننا سنجد الأغلبية الساحقة من المواطنين أمام هذه الشدائد : ما بين ق فان وميت ، ومشته للموت في مثل هذه الظروف الافارة علمنا أن هذه الشدائد قد كانت طابع ذلك

<sup>(</sup>١) واصطلاح الفقراء في الفقه الإسلامي ، يطلق على الذين لا يملكون رصيدًا يكفى احتياجاتهم من الضرور بات عامًا كاملاً .

<sup>(</sup>٢) والمساكين ، اصطلاح إسلامي يطلق على المُعدِمين اللين لا يملكون شيئًا .

<sup>(</sup>٣) إغاثة الأمة بكشف الغمة : ص ٧٢\_٧٥ .

العصر ، وأنها كادت أن تكون ملازمة للناس ملازمة الظل فى تلك الحقبة من حقب التاريخ ، أدركنا عمل تلك المأساة التى عاشها الإنسان المصرى العادى والبسيط فى ذلك الزمان .

أما العناصر الأساسية ، التي عاشها الإنسان المصرى في هذه الحقبة ، فإننا نستطيع إجمالها تحت عناويسن رئيسية ، شكّلت طابع الحيساة الاقتصادية والاجتماعية ، وأثّرت فيها أبلغ التأثير ، وهي :

- ١ \_ النظام الإقطاعي في الاستثمار الزراعي .
- ٢ .. الضرائب الكثيرة التي كانت تُجبَى من المواطنين .
  - ٣ .. المجاعات التي كادت أن تلازم الناس يومثذ .
- ٤ ـ الحروب والأخطار الخارجية ، وما كانت تستنزفه من إمكانات وثروات .

### الإقطاع الزراعي

وإذا كنا قد تحدثنا ، فيها سبق ، عن نظرية الإمامة عند الشيعة الفاطمية ، وعند الشيعة عمومًا ، وأشرنا إلى صلة موقفها في « التفويض والحق الإلمى » للخلفاء بالميراث الفكرى الإقطاعي للأكاسرة الفرس الساسانيين ، فإننا حينها نظر إلى النظام الاقتصادي الزراعي المذي ساد مصر زمن الفاطميين ، بل وقبلهم بكثير وبعدهم بكثير ، فإننا سنجد أنفسنا تجاه نظام إقطاعي في الاستغلال والاستثمار ، يقوم على الربع ، ويحمل جوهر الإقطاع بمعناه الحديث ، وإن الختلف في الشكل عن الإقطاع الذي عرفته أوربا في العصر الوسيط (١).

فعندما وصل المعز لدين الله الفاطمى إلى مصر ، وشرع في إجراء التغييرات الإدارية في جهاز حكمها، « قبضت أيدي سائر العال والمتضمنين ، وعهد بكل

<sup>(</sup>١) راجع فجر اليقظة القومية : ص٥٩ - ١٦٨ - ١٥٣ ـ ١٦٨.

شئون المال والاقتصاد والحسبة والجوال - (الجزية) - والأحباس - (الأوقاف) - والمواريث ، والشرطة ، و وجيع ما ينضاف إلى ذلك وما يطوى في مصر ، وسائر الأعبال " إلى كل من يعقوب بن يوسف وعسلوج بن الحسن . و وكتب لهم بذلك سجلاً ، وقرى و يوم الجمعة ( ١٦ من عرم سنة ٣٦٣ هـ (سنة ٩٧٣م) ، على منبر جامع أحمد بين طولون » . وشرعت السلطة الجديدة في نقل تعاقدات «الالتزام» و « التضمين » إليها كطرف في هذه العملية التي تقوم فيا بينها وبين «الملتزمين » و « الضامنين » ، هؤلاء الذين اعتادوا التوافد إلى مسجد عمرو بن العاص يمدينة الفسطاط في يوم عدد من أيام السنة لحضور « المزايدة » على من العاص يمدينة الفسطاط في يوم عدد من أيام السنة لحضور « المطاء » على من المناتزام» ، فينادى على القرى ، وتتم « المزايدة » ، ثم يرسو « العطاء » على من الفلاحة الملازمة لهذه الأرض التي كانت تتكون منها دوائر الالتزام ، فلقد كان يقوم بها الفلاح المصرى الذي صبره نظام الالتزام « عبدًا قناً لمن أقطع تلك الناحية ، إلا أنه لا يرجو قط أن يباع ولا أن يعتق ، بسل هو قِين منا بقى ، ومن ولد له أنه لا يرجو قط أن يباع ولا أن يعتق ، بسل هو قِين منا بقى ، ومن ولد له كذلك النارية .

وعندما قرىء سجل تولية يعقبوب بن كلس ، وعسلوج بن الحسن الأمور المال في مصر الفاطمية ، « جلسا عند هذا اليوم ، ( لا في مسجد عمرو بن العاص هذه المرة ) ، ولكسن في دار الإمارة في جامع أحمد بين طولون (٣)، للنداء على الضياع وسائر وجوه الأموال ، وحضر الناس « للقبالات » . وإمعانًا في تأكيد استمرارية النظام الاقتصادي نفسه بمصر ، وإن تغيرت «الدولة»، طلبت السلطة الجديدة

<sup>(</sup>١) المرجع السابق : ص١٥٦.

<sup>(</sup>۲) خطط المقریزی: جد۱ ص ۸۵.

<sup>(</sup>٣) كانت دار الإمارة هذه ، بجوار مسجد ابن طولون.

من الملتزمين والمتقبلين والضامنين « البقايا من الأسوال مما على المالكين والمتقبلين والمعيال ، واستقصيا ـ (أي ابن كلس وعسلوج ) ـ في الطلب » (١).

ولقد كان نظام الالتزام ، وإن لم يعط الملتزم حق الملكية القانونية المطلقة للأرض ، وإن اقتصر حقه هذا على ما يمكن أن نسميه « ملكية المنفعة » ، إلا أن استمرارية هذا الحق الدى بدأ « لمدة عام ، ثم تطور الأمر فأصبح الحصول عليه لأكثر من عام ، ثم أصبح « الالتزام » حقًا للملتزم القائم يواجباته مدى الحياة ، بل ولورثته من بعده إن هم طلبوا ذلك وقاموا بها يفرضه عليهم من واجبات » (٢).

لقد كان هذا النظام بتطوره هذا الذي حول الملكية المنفعة الله ما يشبه الملكية المطلقة ، وكذلك بالعلاقات الإقطاعية الصرفة التي كانت قائمة بين الملتزم وبين الفلاح القِنّ الذي يزرع الأرض نظير القوت الضرورى ، والذي ما كان يستطيع أن يتحرر من قيد الحياة في الدائرة التي ولند فيها ، وكذلنك بالريع والفائض العائد لخزانة الملتزم ، والذي هو حصيلة الفرق بين الضيان والضريبة اللتين يدفعها الملتزم ، والقوت الضرورى الذي بمنحه الملتزم للاقنان للقد كان نظام الالتزام هذا ، وهو القسمة العامة لنظام الاستغلال الزراعي في مصر ، نظامًا إقطاعيًا لحيًا ودمًا ، تكثفت فيه كل جوهريات النظام الإقطاعي ، بصرف النظر عن الفروق الشكلية التي تمايز ما بينه وبين إقطاعيات أمراء الإقطاع الأوربيين في العصر الوسيط .

بل إننا نجد ، أحيانًا ، فى النتف القليلة التى خلفها لنا المؤرخون المصريون عن مظاهر هذا النظام الاقتصادى ومراسيم وجوهه وأعيانه ، ما يقرب الشقة بينه وبين ما عرفناه عن نظام أمراء الإقطاع ، من حيث التزام الملتزمين بالحرب ونفقاتها عن المناطق التى ضمنوا خراجها ، وكذلك من حيث المظاهر التى كانوا يحيطون

<sup>(</sup>١) اتعاظ الحنفا: ص ١٤٥ ، ١٤٥ .

<sup>(</sup>٢) فنجر البقظة القومية : ص ١٥٦.

بها أنفسهم ، فنحن نقراً للمقريزى ، أنه حندما « ضمن أبو عبد الله الحسن بن إبراهيم الرسي ، وأبو طاهر بن قيامة خراج الأشمونين وحربها ، وخلع عليهما ، سارا بالبنود والطبول ، وضمن أبو الحسن على بن عمر العداسي كورة بوصير وأعهاها ، وخلع عليه وحمل ، وسار بالبنود والطبول » (١).

وعندما كنان « الضنامسن أو المتقبل أو الملتزم » يحصل على امتياز ضيان الخراج»، وكذلك على « الأعيال »، وأيضًا على « الحرب »، بالنسبة لدائرة النزامه أو « قبالته »، فإنه كان يتحول إلى حاكم تجتمع في يديه كل السلطات الاقتصادية والإدارية والحربية ، وحينئذ يكون قد اقترب كثيرًا من صورة أمير الإقطاع الأوربي، وإن ظل نهر النيل بها فرضه من مركزية للدولة المصرية ضاربة بمجذورها في أعياق التاريخ ـ عقبة أمام تحول دوائر الالتزام هذه إلى وحدات إدارية وسياسية مستقلة ، كما حدث في أوربا الإقطاعية عندما ساد فيها هذا النظام.

### الضرائب والمكوس

ولم تكن الدنانير المعزية اللهبية ، التي تحولت إلى سبائك على هيئة «الرحى» ، والتي حملت على إبل « زناته » في موكب المعز لدين الله الفياطمي القادم إلى مصر بعد الفتيح بأربع سنوات ، لم تكن هذه الثروة بهانعة المعز ، ومن جاء بعده من خلفاء أسرته ، من الغلو في جبابة الضرائب وفرض المكوس وتحصيلها ، والقسوة في ذلك إلى الحد المذي أرهق الشعب بطبقاته الفقيرة ، وحول حياته إلى سلسلة شبه متصلة من الأزمات والمجاعات والاختناقات .

ونحن لا يمكن أن تخدعنا كليات المعز ، ولا كليات قائده جوهر الصقل من قبله ، التي صورت أهداف الفتح على أنها منحصرة في « الحج والجهاد » ، لأننا نجد الوقائع المادية الصارخة تكذب ذلك ، كها نجد المقريزي ، وهو مؤرخ غير

(١) اتماظ الحنفا: ص ٢١٧.

متهم بمعاداة الدولة ، يتحدث إلينا عن الشدة التى استنها المعز فى جمع الخراج ، وكيف « اشتد الاستخراج (١) ، وأكد المعز فيه ليرد ما أنفقه من أمواله على مصر ، لأنه قدم مصر يظن أن الأموال مجتمعة ، فوجدها قد فرقتها مؤن مصر وكثرة عساكرها ا » (٢).

بل إن علينا ، ونحن نطالع أرقام الضرائب والمكوس التي حصلها المعز ونظامه الجديد من المواطنين المصريين ، أن ننتبه إلى ذلك التعديل الذي حدث في العملة ، والفرق بين " الدينار المعزى " الجديد و " المينار الراضي " الذي كان معمولاً به في مصر من قبل ، وكيف " امتنع يعقوب (بن كلس) وعسلوج (بن الحسن) أن يأخذا في الاستخراج إلا " دينارًا معزيًّا " ، في اتضع " الدينار الراضي " وانحط ، ونقص من صرفه أكثر من ربع دينار " (٣) أ

وفى شهر ربيع الآخر سنة ٣٦٣ هـ (سنة ٩٧٣ م) ، طلبت السلطة الجديدة من أصحاب الأوقاف ونظار الأحباس حجيج هذه الأوقاف وشرائطها ، ليتم الحساب على أساسها منعًا من التهرب والتهريب ، وبلغت قسوة التحصيل وكثرة الأموال المستخرجة حدًّا جعل المقريزي يقول : إن ا هذا لم يسمع بمثله قط فى بلد» ا وهو يقصد فى بلد غير فاطمى ، أو فى بلد من قبل ذلك ، لأنه يستطرد فيلكر أن مثل ذلك قد حدث بعد عهد المعز فى عصر العزيز ا

ولمل نظرة على الأرقام التي جباها يعقوب بن كلس والتي ذكرها المقريزي تستطيع أن تجسد لنا الصورة التي بلغها هذا الأمر إلى حد كبير:

 ففى يوم واحد ، بلغ المستخرج أكثر من خمسين ألف دينار معزية ، جمعت دون أن يعطى جامعوها « براءة ولا حوالة » للذين دفعوها أ

<sup>(</sup>١) ولست أدرى هنل قصد المقريزي إلى استخدام كلمة الاستخراج ابدلاً من الخراج ، الراب ولست أدرى هن المعروف أن اليصدور حقيقة الحال ، أم جاءت هكذا عضوًا لتجيد التصدوير ، إذ من المعروف أن الاستخراج اللمة توحى لنا بأن الأمر كان النزاعًا اللخراج من الناس أ ا

<sup>(</sup>٢) اتعاظ الحنفا: ص ١٤٦.

<sup>(</sup>٣) المبدر السابق : ص ١٤٦،

- وفي يوم ثان ، بلغ المستخرج ١٢٠,٠٠٠ دينار معزية .
- وفي يــوم ثالث ، بلغ المستخرج من ثــالاث مــدن مصرية فقــط هي " تنيـس "
   وقدمياط " و الأشمونين " أكثر من ١٠٠٠ ، ٢٢٠ دينار معزية (١).
- ولقد بلغت الضرائب التي تدفعها مدينة \* مصر \* وحدها في اليوم الواحد ما بين ٢٦ و ٢٦ ألف جنيه ، وذلك حسب حالتها المالية (٢).

ف إذا جننا إلى عصر الخليف المستنصر ، وجدنا خراج مصر قد بلغ المراد و بدنار سنة ٢٦١ هـ (سنة ٢٠٠١م) ، وفي عهد وزيره ذي السلطات المطلقة بدر الجهالي ٢٠٠, ١٠٠ هـ (سنة ٢٧٨ه)، ليقفز في عهد المستنصر كدلك على يد وزيره الأفضل بن بدر الجهالي الى ٢٠٠، ٥٠٠، ٥ دينار ، وذلك غير ما جمع عينًا من غلالها التي بلغت الى ٢٠٠، ١٠٠، ١ أردب (١).

فإذا أضفنا إلى ذلك دخل السلطة الفاطمية من المكوس التي كانت تحصلها على التجارة الواردة من خارج البلاد ، وكانت تبلغ ٢٠٪ من قيمتها ، والصادرة إلى خارج البلاد ، وهي المكوس التي كانت تجمع في ثغور " دمياط " و " تنيس "

<sup>(</sup>١) المصدر السابق: ص ١٤٧.

<sup>(</sup>٢) سيرة القاهرة: ص ١٣١.

<sup>(</sup>٣) اتماظ الحنفا: ص ١٤٧.

<sup>(</sup>٤) الحاكم بأمر الله : ص ٣٤٦ . وخطط المقريزي : جـ١، ص ٨٣.

والرشيد الوالمكندرية الواعيذاب الوالا السوان ا ، واضعين في اعتبارنا أهمية مصر في ذلك الحين ، وقبل اكتشاف طريق رأس السرجاء الصالح ، وخلال فترات كثيرة أغلقت فيها طرق الشام أمام التجارة المدولية بسبب من غزوات القرامطة أو حروب الصليبين ، مما جعل مصر هي الطريق شبه الوحيد لهذه التجارة العالمية ، وإذا أضفنا إلى ذلك أيضًا المكوس التبي كانت توخذ على التجارة الداخلية \_ (الترانزيت ) .. داخيل الوطن الواحد ... مصر .. بسبب من التجزئة النسبية التي أحدثها نظام الالتزام ، وضعف السلطة المركزية في كثير من الفترات . . كذلك ، إذا أضفنا دخل هذه السلطة من الجزيمة التي كانت ضريبة أمن وجندية يمدفعها الذميون ، وكذلك الدخل الناتيج عن فيروق العملة والنقيد ( فرق السكة ) ، والضرائب الأخرى التي كانت تجبي من الناس ، وخاصة من ﴿ المؤمنين ﴾ المريدين للتشيع والسالكين في الاعتقاد مسلك الضاطميين ، والتي كنانت تعرف إحداها «بالنجوي » وثنائيتها « بنالفطرة » ، ضرائب أشبه بنالاشتراكات الحزبينة ، لأنها «صاربت فرضًا وأجبًا على كيل مؤمن العميل به ، ومين تركه كمين ترك فرضًا من فرائض الصلاة والصوم والحج والجهاد » ، ولأنها " كانت من الفروض اللازمة للإمام على المؤمنين ، وبها قوام الدين . . و إنه لا يسم أحدا من المؤمنين تأخيرها ، ولا يحل له إغفالها » (١).

وإذا أضفنا إلى كل ما تقدم دخل السلطة الفاطمية ، والخليفة بالذات ، من التجارة الخاصة التي كانت شبه احتكار لهم ، ومن الحوانيت والدكاكين التي كانت الماصمة تمتل بها والتي كانت لهم ملكًا يؤجرونها للناس ، والتي بلغت عشرين ألفًا ، ومن المنازل التي كانت لهم بالعاصمة يؤجرونها للناس ، والتي بلغت بلغت ثمانية آلاف ، حسب روايات ناصري خسرو أدركنا عظمة تلك الروافد المالية التي كانت تحد خزائن الدولة بالأموال ، وكثرتها ، وأدركنا كذلك فعالية هذا النظام الضرائبي وقدرته على أن يكون مصدرًا من مصادر الشقاء وعاملًا من عوامل المأساة التي عاشها الإنسان المصري في ذلك التاريخ .

<sup>(</sup>١) الحاكم بأمر الله : ص ١٤٩ ، ٣٤٦ . والسجلات المستنصرية : ص ٨٥ ، ٨٨ .

أما كيف كانت هذه الأموال تنفق عندما تصل إلى خزائن الخلفاء والأغنياء ، فإن حديثنا اللذى سبق عن قسمة الغنى والبذخ والترف اللذى شهدته مصر والقاهرة ، إنها يمثل الجواب عن هذا السؤال ، ويكفى أن نقرأ أرقام نموذج واحد، ساقه لنا المقريزى لجانب من « ميزانية الدولة ، الخاص بالمنصرف في أحد أعوام حكم المعز لدين الله ، لنجده يقول : إنها كانت على هذا النحو :

الغرض المتمد لأجله	المبلغ بالدينار
وقف على ا معلول ومنكسر ، على موتى وهراب ومفقود ؟ . (وهو	Y ,
خاص بعلاج الخاصة، وتجهيز موتاهم، وأعيال خاصة بالأمن).	
« للرجال ( رجال الدولة ) عن واجبانهم وكساويهم » .	¥**,***
<ul> <li>١ ثمن غلة للقصور ١ الخاصة بالخليفة ( ولقد بلغ سكان القصر ،</li> </ul>	100,000
عندما زار ناصری خسرو مصر ، ۲۰۰، ۳۰ نسمة ) .	
<ul> <li>القصور » .</li> </ul>	4.1,111
<ul> <li>عن عبائر (أى سفن ) ـ. وما يقام للضيوف الواصلين من الملوك</li> </ul>	100,000
وغيرهم * .	
لبيت المال المصون ( وهو المبلخ الوحيد الذي يمكن أن ينفق بعضه	1.,,,,,
في المصالح المعامة من بين ١٠٠٠, ١٠٠١ دينار ، وهي مجموع	
هذه الميزانية الجزئية التي ساق المقريزي طرفًا منها (١).	

<sup>(</sup>۱) خطط المقریزی: جد ۱، ص ۸۲.

### الحسروب

ولم تكن الحروب التى خاضها الفاطميون ، والتى سيبت هى الأخرى نزيفًا اقتصاديًّا لثروات الشعب والجهاهير ، وساهمت في صنع المأساة التى تجسدت في سلسلة الأزمات المالية والمجاعات الغذائية ، لم تكن هذه الحروب قاصرة على ذلك الفتح الفاطمي المذى مد حدود الدولة إلى الشام والموسل ، أحيانًا ، وإلى اليمن وغيرها من أصقاع المشرق العربى . بل إن بعض هذه الحروب قد دار في مصر نفسها ، من جانب القرامطة في بداية العصر الفاطمي ، ومن جانب الصليبين في نهاية هذا العصر . ذلك ، أن مصر كانت مطمعًا للقرامطة ، كها كانت مطمعًا للفاطمين ، ولقد كان للفريقين بها دعاة وأنصار ومشايعون ، ولم يضع الفتح الفاطمين . ولقد كان للفرامطة فيها ، بل لقد غزوها مرتين بعد فتحها على يد الفاطمين .

ففى شوال سنة ٣٦٠ هـ (سنة ٩٧٠) ، وقبل قدوم المعز إلى مصر ، تحدث الناس بقرب وصول جيش القرامطة غازيًا للبلاد ، فاستعد جوهر الصقل للقائهم ، « وفرق السلاح على المغاربة والمصريين » . ويبدو أن مدينة « تنيس » الصناعية ، كان بها مشايعون كثيرون للقرامطة ، فانتهز أهلها الفرصة ووثبوا « على واليهم ، وقتلوا جماعة ، منهم الإمام في القبلة ! » . كما « وجدت رقاع (منشورات) في الجامع المعتين ( جامع عمرو بن العاص ) فيها التحلير من جوهر » (١) . وبعد أقل من ثلاثة أشهر ، ( المحرم سنة ٢٦١ههـ سنة ٢٧١م ) وصل جيش القرامطة إلى « الفرما » واحتلها ، وانتهز أهل « تنيس » الفرصة مرة أخسرى ، فعصوا سلطة الفاطميين ، « وغيروا الدعوة وسَوَّدُوا» ( لبسوا السَّوَاد شعار العباسيين ) ، وحاربوا جيش الفاطميين .

وفي شهر ربيع الأول من العمام نفسه ، وصل القرامطة إلى أبواب القماهرة ، بل

(١) اتماظ الحنفا: ص ١٢٩.

ودخلت منهم جماعة من أحد أبواب المدينة ، والتحم القتال بينهم وبين جيش جوهر الذى انتصر عليهم (١). وبعدما حضر المعز لدين الله إلى مصر ، حدث فى شهر جمادى الأولى سنة ٣٦٣ هـ (سنة ٩٧٣م) ، أن تحدث الناس عن غزوة ثانية لمصر حضر من أجلها الجيش القرمطى بقيادة الحسن بن أحمد القرمطى ، الذى كان يتوعد الفاطميين ، ويتحدث عن «حتمية » فتحه لمصر ، فيقول :

زعمت رجالُ الغرب أنَّى هِبْتُها فدمِسى إذاً ما بينهم مَطلولُ يا مصْرُ ، إذْ لم أَسْقِ أَرْضَك مِن دَم يرُوى ثراكِ ، فلا سَقاكِ النَّيلُ (٢) ا

فاستعد المعز لدين الله للقاء الحسن القرمطى وجيشه . وكم هى العادة دائماً ، حدث للمواطن العادى ما يحدث له دائماً في مشل هذه المناسبات ، إذ ق وى الاستخراج ، ومنع الناس من الحضور إلى المعيوان ، لثلا يقفوا على مبلغه ، (٣)! المم تجهز المعز في ٣ من رجب سنة ٣٦٧ هـ. (سنة ٩٧٣ م) للقتال ، وكان الجيش القرمطى قد وصل إلى بلبيس ، ووزع الفاطميون السلاح على الأشراف والعرب فوجع من جند المصريين ، (٤) ولم يستطع الفاطميون الانتصار على القرامطة هذه المرة إلا بالحديعة والمكر . ذلك ، لأن القرامطة كانوا وهم في طريقهم إلى مصر قد تحالفوا مع قد حسان بن الجراح الطائي ، أمير العرب ببلاد الشام . فجرت مراسلات بين المعز وبين حسان هذا ، اتفق فيها على أن يخون حسان عهده مع القرامطة ، فينهزم بجيشه عندما تحتدم المعركة ، وذلك في نظير ، ، ، ، ، ، ، د دينار ذهب يدفعها له المعز . ولقد حدث بالفعل أن أرسل إليه المعز ق بهائة ألف دينار في أكياسها ، ولكن أكثرها زغل ضرب النحاس ، وألبسه ذهبًا ، وجعله في أسفل أكياس ، وجعل في رءوسها الدنائير الخالصة . ولما بعثها إليه ، ركب في أثرها في جيشه ، فالتقى الناس ، فالهزم حسان بمن معه . فضعف جانب القرمطى ،

<sup>(</sup>١) المصدر السابق: ص ١٣٠ . وسيرة القاهرة: ص ١١٥.

<sup>(</sup>٢) أتعاظ الحنفا: ص٢٠٦.

<sup>(</sup>٣) المصدر السابق: ص ١٤٨.(٤) المصدر السابق: ص ٢٠٢٠.

وقوى عليه الفاطمى فكسره! \* (١) وفى العام نفسه ، استطاع الفاطميون أن ينتزعوا دمشق من يد القرامطة . وكان العداء بينها ، يرغم أصولهم الشيعية ، قد بلغ حدًّا جعل أحد دعاة القرامطة فى مدينة نابلس « يتكلم فى الفاطميين ، ويقول : لو كان معى عشرة أسهم لرميت الروم بواحد ، ورميت الفاطميين بتسعة ! » (٢).

وإذا كان القرامطة لم يقوموا بغزو مصر الفاطمية بعد هذا العام ، فإن العداء بينها ظل قائمًا ، ولقد اتخذ هذا العداء من مناطق الشام ميادين للحرب والصراع . ووجدنا في عصر الحاكم بأمر الله زعيم القرامطة يبعث للحاكم برسائل التهديد ، والحاكم يبعث إليه بالإنذارات والوعيد (٣) .

على أنه ينبغى لنا أن ندرك أن آثار هذه الحروب من الناحية الاقتصادية ، إنها كمان يتعسدى الشدمير وزيادة الضرائب والخراج إلى إحداث الاضطرابات في الأسعار، مما يضر بمصالم المواطنين . وفي عهد الأيوبيين ، نجد حديثًا واقعيًّا للمؤرخ العهاد المذى تجهز للغزو مع صلاح الدين ، ثم ذهب إلى المسوق قبل مغادرة الجيش للقاهرة ، فأغراه ارتفاع الأسعار بأن يبيع متاعه ويعدل عن الذهاب للجهاد أا وذلك ، عندما يقول : " فركبت إلى سوق العسكر للابتياع ، وقد أخذ السعر في الارتفاع ، فقلت لغلامي : قد بدا لى ، وقد خطر الرجوع من الخطر السعر في الارتفاع ، فقلت لغلامي : قد بدا لى ، وقد خطر الرجوع من الخطر ببائى ، فأعرض للبيع أحمل وأثقالى ، وانتهز فرصة هذا السعر الغالى ا » (٤) ثم استأذن صلاح الدين في إعفائه من الغزو في ذلك المعام !

#### المحاعات

على أننا نظلم الدولة الفاطمية ، إذا نسبنا المجاعات التي أصابت البلاد إلى

<sup>(</sup>١) البداية والنهاية : جد١١ ، ص ٢٧٦ .

<sup>(</sup>٢) المصدر السابق: حد ١١، ص ٢٧٧ . ٢٨٤ .

<sup>(</sup>٣) الحاكم بأمر الله : ص ٢٩٩ .

<sup>(</sup>٤) كتاب الروضتين : جـ ١ ، ص ٢٩٧ .

عهدها فقط ، وإذا اعتبرنا الغلاء والاضطرابات في الأسعار ظاهرة فاطبية . ذلك، لأن هذه النواقص في النظام الاقتصادي المصرى ، إنها كانت عيوبًا وجراحات نابعة من طبيعية النظام الإقطاعي ، ومظهرًا من مظاهر الظلم الاجتهاعي الناتج عن هذا النظام . فمنذ سنة ٢٥٦ هـ ، وقبل الفتح الفاطمي بست سنوات ، كانت البلاد تعاني من حالة غلاء شديد ، واضطراب اقتصادي استمر نحو تسع سنوات . ولقد سبقت إشارتنا إلى ذلك في أول هذه الدراسة ، وتحدثنا حينئل عن الدور الذي لعبته هذه المجاعة في التمهيد للفتح الفاطمي ، وعندما وصل جوهر الصقل في سنة ٢٥٨ هـ ( سنة ٢٦٨ م) أولى قضية الأسعار اهتهامه ، وحاول علاج هذه الحال ، فجمع سياسرة الغلال ، وحدد لهم سوقًا حوم بيع الغلال في مكان آخر سواه ، ولم يجعل لبلوغ هذه السوق سوى طريق وأحد ، بيع الغلال في مكان آخر سواه ، ولم يجعل لبلوغ هذه السوق سوى طريق وأحد ، وصار البيع والشراء لكل قدح من القمح يتم تحت إشراف المحسب لا سليان بن وصار البيع والشراء لكل قدح من القمح يتم تحت إشراف المحسب لا سليان بن عزة ، كما قيام بضرب جماعة من الطحانين ، وأركبهم ، وطبق بهم في طرقات العاصمة وشوارعها .

وبسرغم هذه الإجراءات ، فلقد استمر الغلاء إلى سنة ٣٦٠ هـ (سنة ٩٧٠م)، مما سبب وباء وأمراضًا حصدت الكثير من الأرواح ، حتى عجز الأحياء عن دفن الأموات ، فضلاً عن تكفينهم وتجهيزهم أ وصار الناس يطرحون موتاهم في النيل ، مما ضاعف من وطأة الوباء والأمراض والوفيات . حتى إذا كانت سنة ٣٦١ هـ ( سنة ٩٧١م) ، أخلت الأسعار في الانخفاض ، وأعطت الأرض عصولاً وفيرًا ، وهبت على الناس ربح الرخاء (١).

ولقد عاود الوباء مصر فانتشر بها ثانية في سنة ٣٦٣ هـ. (سنة ٩٧٣م) ومات بسببه خلق كثير (٢)، شم عساود المجسىء مسرة أخسرى في سنسة ٣٦٨ هـ.. (سنة ٩٧٨م) (٣).

<sup>(</sup>١) إغاثة الأمة بكشف الغمة : ص ١٣ ، ١٤ .

<sup>(</sup>٢) اتعاظ الحنفا : ص ٢١٥ .

<sup>(</sup>٣) المدر السابق: ص ٢٤٦.

ولم يسجل تاريخ المجاعات في مصر ، الذي أحصاه وكتبه المقريزي ، عنا جديدة فيها تبقى من أيام المعز لدين الله ، وإن كان قد سجل اضطرابات في الأسعار بالهبوط والارتفاع ، نشأت عن انخفاض في قيمة الدراهم في عهد العزيز، في سنة ٣٨٧ هـــ (سنة ٩٩٢م) ، حتى هبط سعر الدراهم إلى ربع قيمتها الحقيقية ، عما أدى إلى سحب هذه الدراهم وضرب دراهم جديدة (١١).

أما المجاعات ، التي شهدها عصر الحاكم بأمر الله ، فلقد سبق حديثنا عنها وعن الطريقة التي عولجت بها شرورها وآثارها عند الحديث عن القسات الهامة والطريفة التي عرفت بها القاهرة في ذلك الحين .

أما مجاعــات عصر المستنصر ، ومن حكم بعــده من خلفاء الفــاطميين ، فإن حديثنا عنها سيأتي عندما تتحدث ، بعد قليل ، عن عصر انهيار هذا النظام .

على أننا نود أن نشير إلى أن الأسباب التى كانت تقف وراء حدوث هذه المجاعات ، لم تكن هى نقصان مياه النيل فحسب ، لأننا قد رأينا عندما عالجها الحاكم بأمر الله فى سنة ٣٩٨ هـ (سنة ١٠٠٧م) ، كيف أرهب التجار والموسرين حتى خرجت من نخازتهم الغلال التى غطت أرض الطرقات ، مما أثبت ويثبت أن أسباب هذه المجاعات لم تكن مياه النيل التى نقصت ، بقدر ما كانت سوء توزيع الثروة فى البلاد ، وسوء إدارة هذه البلاد ، وبالحتصار كل ما هو مرتبط بالنظام الإقطاعى الاستبدادى من مظالم وآفات وعيوب وثغرات .

وإذا كانت مظالم الإقطاع وعيوبه ، مضافًا إليها قسوة النظام الضرائبي وثقل أحمال الجبايات والمكوس ، وكذلك الحروب التي خاضتها الدولة في الداخل والخارج ، هي في مقدمة الأسباب التي ساعدت على انتشار الغلاء وحدته وتكرار دوراته ، فإن المجاعات التي شهدتها مصر إذا ما انضمت إلى هذه الأسباب

<sup>(</sup>١) المصدر السابق: سي ٢٧٤.

اتضحت لدينا معالم الصورة الأخرى لمصر والقاهرة فى ذلك الحين ، معالم الموجه الآخر للعملة ، وجه مصر الشعب والقاهرة الأكثرية والجهاهير ، وعلمنا لمن كانت ثهار الغنى والترف والبسلخ والرخماء ، وعلى من كانت آشار المظالم الإقطاعية والجبايات والمغلاءات حتى أصبحوا ما « بين فان ، وميت ، ومشته للموت فى مثل هذه الظروف » أ ا كها يقول مؤرخنا المقريزي عندما وصف حال الشعب فى ذلك التاريخ .

الفصيل الشامن مصر تعت وم

 دراسة عن المبات والتمردات والانتفاضات التي صنعها الشعب ضد المظالم الاجتهاعية ، التي شهدها في ذلك العصر . . والإبداع الشعبى الذي تجلى في ابتكار ألوان جديدة من اللقاومة .

# تمردات واننفاضات

لا يستطيع باحث يحترم الدلالات الموضوعية والدقيقة للمصطلحات ، أن يتبسط فى الحديث فيزعم أنه قد حدثت بمصر الفاطمية ثورات شعبية ضد الحكم الفاطمي ، ولا أن الشعب قد نظم صفوفه لمقاومة المظالم الاجتهاعية ، والآفات الإقطاعية والضرائبية والحربية ، التي أشرنا إلى طرف منها منذ قليل . ذلك ، لأن كتب التاريخ لا تسعفنا بالمادة التي تؤهلنا للخوض في هذا الحديث ، حديث قيام هذه الثورات .

ونحن إذا تجاوزنا نطاق « الفولكلور » ، الذي يعتبر أصدق مرآة عبرت عن هذه القسمة من قسيات شعبنا في هذه الظروف ، وهي المرآة التي لم تصقبل بعد ، ولم يتح طا المهرة من الباحثين الذين يهتمون بهذه الحقبة من حقب تاريخنا ، إذا تجاوزنا هذا النطاق ، لا نجد في جعبتنا سوى أحداث غير كثيرة ، لا يرقى تقييمنا لها لل وضعها في مستوى « الثورة » ، وإنها يقف بها عند حدود « التمرد» و «الانتفاضة » و العصيان».

• ففى سنة ٣٦٠ هـ.. (سنة ٩٧٠م) ، « وثب أهل « تنيس » على واليهم (الفاطمى) وقتلوا جماعة ، منهم الإمام ، في القبلة » . وكان ذلك بتأييد معنوى من الأخبار التي تتحدث حن قدوم الجيش القرمطى لقنال جوهر الصقل وإجلاء الفاطميين عن البلاد . وعلى الرغم من أن صفحات هذا التاريخ قد حفظت لنا نتفًا كثيرة تؤكد أنه قد كان لتيار القرامطة وحركتهم في مصر أنصار وأعوان ودعاة ، فإننا نلاحظ أن مدينة « تنيس » ، وكانت مدينة صناعية ، موقعها الآن في بحيرة المنزلة بشيال الدلتا ، كانت في مقدمة المدن التي علا فيها

شأن هذه الدعوة ، واتخذت المواقف الإيجابية لصالحها ضد الفاطميين . ولعل في معرفتنا للطبيعة اليسارية لفكر القرامطة الاجتماعي ، وللصلة الوثيقة بين لون هذا الفكر وبين طوائف الحرفيين وتنظياتهم في منطقة الخليج العربي ، التي شهدت قيام قواعد دولتهم الأولى ، بل والتي لا تزال تحتفظ ببقايا مذهبهم حتى هذه الأيام ، لعل في ذلك كله بعض الأسباب التي جعلت من المدينة الصناعية سو تنيس " \_ إحدى القواعد النشطة في مصر لهذا اللون من ألوان التفكير والنشاط .

- وفى نفس الوقت ، الذى حدثت فيه وثبة « تنيس » وعصيانها ، كان «المصريون» يوزعون المنشورات ضد جوهر الصقلى ، وفيها التحذير من التعاون معه . ولقد وزع بعضها فى « الجامع العتيق » ( مسجد عمرو بن العاص ) ، ولكن ( جوهر) قد عالج قضية المنشورات هذه بأن « جمع الناس ووبخهم فاعتذروا ا » (۱).
- وفى بداية ٣٦١ هـ.. (سنة ٩٧١) ، لا عصى أهل تنيس لا مرة أخرى ، وكان جيش القرامطة قد استولى على مدينة الفرما لا ، وشارك كثير من المصريين في نصرة القرامطة والقتبال إلى صفهم حتى وصلوا إلى عين شمس ، بمل لقد وصلوا أبواب القاهرة في مستهل شهر ربيع الأول من ذلك العام . ولقد كانت ضمن الاستعدادات التى اتخذها جوهر لقتبال القرامطة ، والخاصة بجبهة البلاد الداخلية ، اعتقال عديد من المواطنين ، والقبض على أربعة من الجند المصريين ، وضرب أعناقهم وصلبهم لا ، وكذلك تحديد على إقامة ابن الفرات الذي كان وزيرًا للإخشيديين ، شم سالم الفتح الفاطمي ، والذي كان له أخ يقاتل الفاطميين في صفوف القرامطة ، فلقد احتاط جوهر للأمر فأخرج ابن الفرات من داره ( بالفسطاط ) وأسكنه القياهرة الوسط معسكرات الجند الفاطميين (٢)!

<sup>(</sup>١) المصدر السابق : ص ١٢٩.

<sup>(</sup>٢) المصدر السابق: ص ١٣٠.

- وفى شهر رمضان سنة ٣٦١ هـ.. (سنة ٩٧١م) ، أراد بعض سكان ق مصر السنفزاز جوهر ، والإعلان عن تمردهم ورفضهم لسلطانه ، فأطلقوا عجوزاً تنشد في الطريق أناشيد لا يرضاها الفاتحون افقبض عليها أنصار جوهر ، وحبسوها ، ق ففرح جماعة من الرعية ، ونادوا بذكر الصحابة ، وصاحوا : معاوية خال المؤمنين ، وخال على ١ ، (١) . فبعث جوهر إلى الجامع العتيق من يحذر الناس من مغبة ذلك ، ويتوعدهم قبالعقوبة الموجعة ، كما أعلن تراجعه عن حبس العجوز ، وأفرج عنها ، وقال : ق إننا حبسنا العجوز صيانة لها ا ، (٢) .
- ونى نفس التاريخ ، كان صعيد مصر يشهد حركة تمرد وخروج على سلطان جوهر لعلها من أخطر الحركات التى قاومت سلطانه فى ذلك الحين ، وذلك بحكم حدوثها فى منطقة بعيدة عن معسكرات جنده ، وصالحة للتجمع والتنظيم والإعداد . فلقد « خرج عبد العزيز بن إبراهيم الكلابى ، بالصعيد ، وسود ( أى لبس السّواد ، وهو شعار العباسيين ) ، ودعا لبنى العباس » . وأمام حجم هذا التمرد وعطورته ، أرسل إليه جموهر بجيش برى يقوده أحد قادته المسمى « أزرق» ، وقوة بحرية عن طريق النيل تتألف من أربعين مركبًا يقودها « بشارة النوبى » . واستطاعت هذه الحملة أن تقضى على هذا التمرد ، وأن تعود إلى القاهرة بعبد العزين بن إبراهيم الكلابى مصفدًا بالأغلال داخل وأن تعود إلى القاهرة بعبد العزين بن إبراهيم الكلابى مصفدًا بالأغلال داخل قفص حديدى ، ثم « طيف به و بمن معه » من الأسرى فى شوارع العاصمة (\*).

ونحن نلاحظ أن هذه العصيانات والتمردات وعمليات الخروج التي قام بها المصريون ضد سلطان جوهر الصقلي وسلطانه ، لم تكن موحدة الهدف ، ولا

<sup>(</sup>١) كان أعداء الشيعة يقولون أن معاوية خال المؤمنين . . بمن فيهم على ـ لأنه أخو صفية بنت أبى سفيان ، زوج الرسول ، وأم المؤمنين ! ا

<sup>(</sup>٢) المصدر السابق : ص ١٣١ ، ١٣١.

<sup>(</sup>٣) المصدر السابق: ص ١٣١.

المنطلق، ولا القاعدة . ولا أدل على ذلك ، من أن أهمل التنيس اعتدما ثاروا إلى جانب القرامطة ، لم يرفعوا أعلام القرامطة ، بل سوّدُوا ورفعوا شعارات العباسين، كما صنع ذلك تمرد الصعيد . وإذا كان ذلك مفهومًا ، بحكم أن السلطة التي أزاحها الفاطميون من مصر كانت ، في ظاهرها ، عباسية ، وبحكم اللقاء التكتيكي الفاطميون من مصر كانت ، في ظاهرها ، عباسية ، وبحكم الفاطميين ، فإن الشعارات التي لم تكن مفهومة ، هي تلك التي رفعها متمردو الفسطاط والمتمردون من طائفة (الصيارفة) في سنة ٣٦٢ هـ (سنة ٢٧٢ م) الفسطاط والمتمردون من طائفة (الصيارفة) في سنة ٣٦٢ هـ (سنة ٢٧٢ م) الذين صاحوا : المعاوية خالى المؤمنين ، وخال على ا ا المعاردين أصلاً في هذا الصراع ، مما يؤكد أن بعض هذه التمردات والانتفاضات لم يكن ليخرج عن حدود الاستفزاز غير المنظم ، و الإغاظة المؤقتة لسلطان الفاتحين الفاطميين ا .

- وفي آخر ذى الحجة سنة ٣٦١ هـ (سنة ٩٧٢م)، وكان جيش القرامطة الغازى قد تمت هزيمته، شرع الجنود الفاطميون المغاربة في الانتقام من المصريين، الذيس آيد بعضهم الغزو القرمطي، والمذين تمرد بعضهم منتهزا فرصة هذا الصراع، فقاموا بعمليات سلب ونهب واسعة النطاق في قمواضع من مدينة الفسطاط، قفارت الرعية، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، ولقد عاليج جوهر هذه السلسلة من ردود الأفعال المتبادلة بالسياسة والكياسة، فبعث بقائده قسعادة بن حيان الله للمكان الأحداث، وقدر الخسائر التي لحقت بالمصريين، قوغرم للناس ما نهب لهم، وقبل قولهم في ذلك الأالتقدير.
- وف ربيع الأول سنة ٣٦٢ هـ. (سنة ٩٧٢ م) ، حدث « شغب مهنى » ، إن جاز التعبير ، قام به جمع من الصيارفة ، بسبب التغييرات التى أخذت السلطة الجديدة تجريها فى الأجهزة الإدارية والمالية بالبلاد . فلقد عزل المحتسب الجديد «سليان بن عزة» «جماعة من الصيارفة ، فشغب طائفة منهم ، وصاحوا: معاوية

<sup>(</sup>١) المعدر السابق: ص ١٣١.

- خال على بن أبى طالب أ فهم جوهر بإحراق رحبة الصيارفة ( دار ديوانهم ) ، لولا خوفه على الجامع ؟ ( جامع عمرو بن العاص ) (١).
- ويبدو أن مدينة " تنيس " قد عاودت المقاومة مرة أخرى إلى جانب القرامطة ، فلقد وصلها أسطول للقرامطة في شهر ذى القعدة سنة ٣٦٢ هـ.. ( سنة ٩٧٣ م)، ودارت فيها معارك انتهت بانتصار الفاطميين ، حتى إذا كان الشهر التالى قام جوهر بإحضار جماعة من أهل " تنيس " ، وفرض عليهم ديات القتل المغاربة الليس قتلوهم أثناء تمردهم إلى جانب القرامطة ، وطلب منهم المغاربة الليس قتلوهم أثناء تمردهم على ألف ألف درهم " (٢٠).
- ولكن المغاربة لم يكتفوا بهذه المديات التي دفعها أهل " تنيس " ، فحدث في المحرم سنة ٣٦٣ هسد ( سنة ٣٧٩ م) ، أن أخذ المغاربة في اقتصام المساكن المصرية بالعاصمة ، وخاصة في أحياء " القرافة " و " المعافر " ، واحتلالها افنزلوا المدينة ! " ، علمًا بأنه قد كمان محظورًا عليهم تجاوز " الخطط " الخاصة بهم ، والمعسكرات التي أقيمت لهم ، فتظاهر الناس ، " واستغاثوا إلى المعز " ، فأمر بمأن يترك المغاربة هذه المساكن لأصحابها ، وأن يسكنوا بدلاً منها في ضاحية " عين شمس " . وبذلك ، بدأ المغاربة ، شيئًا فشيئًا ، يتجاوزون سور القاهرة الأول الذي بناه جوهر ، ويخالطون المصريين ، ويشاركونهم السكني ، القاهرة الأول الذي بناه جوهر ، ويخالطون المصريين ، ويشاركونهم السكني ، حتى سكن " أكثرهم في المدينة \_ ( الفسطاط ) \_ خالطين لأهل مصر " ، نما فتح صفحة جديدة في التفاعل والانصهار بين هذه الفئات ، التي وإن تصادمت صفحة جديدة في التفاعل والانصهار بين هذه الفئات ، التي وإن تصادمت مصالحها في البداية كثيرًا ، إلا أن روابط العروبة والإسلام ، ثم المعايشة المشتركة والمصالح الموحدة التي أفرزتها الحياة ، قد صهرتهم جميعًا ووحدت بينهم بمرور والمصالح الموحدة التي أفرزتها الحياة ، قد صهرتهم جميعًا ووحدت بينهم بمرور الأيام والأعوام .
- وفي نفس الشهس ، الذي اقتحم فيه المغاربة بيوت المصريين، وفي يموم العاشر

<sup>(</sup>١) المصدر السابق: ص ١٣٢.

<sup>(</sup>٢) المصدر السابق: ص ١٤٢، ١٤٣.

منه (يوم عاشوراء) على وجه التحديد ، كادت أن تحدث اصطدامات مروعة ، ذلك أن المصريين قد تحفزوا لرد عدوان المغاربة ، عندما اعتدوا على أسواقهم ، قل وكسروا أوانى السقائين فى الأسواق ، وشققسوا الروايا (القرب) ، وسبوا من ينفق (ويتعامل) فى هذا اليوم ، وذلك أثناء رجوعهم صائحين باكين فى ذكرى استشهاد الحسين ، من قبر السيدة «نقيسة» ، و قا كلثم بنت محمد بن جعفر بن محمد الصادق » . ولكن أبا محمد الحسن بن عمار ، قائد كتامة ، قد سارع لتهدئة الخواطر ، مما أوقف رد فعل المصريين الذين كانوا قد « أغلقوا الدكاكين ، وعطلوا الأسواق ، استعدادًا للقتال ا » (۱).

- وفى يـوم عيد القطر مـن العام التـالى منة ٣٦٣ هـ (سنة ٩٧٣م) ، تجددت الاضطرابات بين الفريقين مرة أخرى ، و « ثارت فتنة بين المصريين والمغاربة ، فقبض على جماعة ( من المصريين ) وضربوا » (٢).
- فإذا ما انقضى عهد المعز لدين الله ، وجاء عهد العزييز ، استمرت صفحات
   التاريخ في إمدادنا بهذه النتف ، التي تضمن لهذه القسمة إمكائيات الدوام
   والاستمرار.

نفى مواجهة إغراق الشيعة الفاطمية فى تقديس الأثمة أمراء المؤمنين ، وفى مواجهة ما يعتقدونه من عصمة الإمام ، وما يزعمه بعضهم من علمه للغيب وانفراده بالتعليم والتأويل ، نجد سخرية المصريين من هذه الأفكار ، وتعبيرهم عن هـله السخرية بالوسائل المختلفة ، ومن بينها الشعر ، الذى كانوا كثيرًا ما يكتبونه فى المنشورات . فعندما يصعد العزير إلى المنبر ليخطب الناس فى أحد الأيام ، يجد أمامه تلك البطاقة ( المنشور) التى يقول فيها كاتبها :

ب الظُّلْم والجَوْد قد دخِينا وليسسَ ب الكُفُسر والحياقة أن كنتَ أَعْطِيتَ عِلْمَ غيبٍ فقلَ لنا كاتِبَ البِطاقة (٣) ١١

<sup>(</sup>١) للصدر السابق: ص ١٤٦، ١٤٦. (٢) المصدر السابق: ص ٢٢٣٠.

<sup>(</sup>٣) الحاكم بأمر الله : ص ٢٤٦.

وإذا كان صاحب هذه الأبيات قد أخفى شخصيته ، وتحدى العزيز أن يعلم
 من هو ، فإننا نجد المقريزى يجدثنا عن شاعر آخر ، سبقت إشارتنا إليه ، هو
 «الحسن بن بشر » ، ذلك الذى أخذ على عاتقه « هجاء » العزيز، و«نقد»
 تصرفاته ، و«الهجوم» على حاشيته وبطانته ووزرائه وقواده .

ونحن نلمح فى مقدمة المثالب والعيوب التى يرمى بها الحسن بن بشر حكم العزيز وشخصيته ، ضعف شخصية الخليفة ، وقوة نفوذ وزيره يعقوب بن كلس ، والسيطرة المسيحية التى كانت فى بلاط الفاطميين فى ذلك التاريخ .

ففى بعض قصائده ، يهجو الخليفة والوزير وكاتب الإنشاء أبا نصر عبد الله ابن الحسين القيرواني ، فيقول :

قبل لأبسى نصر كاتسب القصر انقسض غرى الملسك الوزيسر واعمط وامنسع ، ولا تخف أحددًا وليسس يسدرى مساذا يسراد بسه

والمسأتى لنقض ذلك الأمر تفز منه بحسن النسا والذكر فصاحب القصر ليس في القصر وهسسو إذا درى فيا يسسدري

وفى قصيدة أخرى ، نجده يتناول فى أحد أبياتها بالذم العنيف والهجاء الشديد: الخليفة ، والوزير ، و « رباح » نديم الخليفة ، عندما يقول :

زيارجي نديم، وكليسى وزير نعم، على قدر الكلب يصلح الساجورا ا ولقد دفع هذا الشاعر \_الذي سبق أن قدمنا نقده لسيطرة المسيحيين على بلاط العزيز \_رأسه ثمنًا لموقفه هذا ، عندما قبض عليه ، وحبس ، ثم أمر يعقوب بن كلس بقتله قبل أن يعفو عنه العزيز (١).

• وإذا كنا قمد سبق أن أشرنا إلى ألوان من التظاهرات والتمردات والانتفاضات،

<sup>(</sup>١) اتعاظ الحنقا : ص ٢٩٨ .

التي حدثت على عهد الحاكم بأمر الله ، لأسباب اقتصادية تعلقت بالمجاعات والأزمات والغلاء ، ولأسباب فكرية تعلقت بشذوذ بعض المراسيم التي أصدرها ، وغلوها من وجهة النظر السلفية السنية ، فإننا نستطيع أن نضيف إلى تلك الوقائع والأحداث تلك الإشارة التي نلمحها في مصادر تاريخ هذه الفترة ، والتي تتحدث عن قيام ثورة دامت عامين كاملين ، و « طالما أحدثت القلاقل في مصر » ، وكيف استطاع الحاكم أن يخمدها ، وإن يكن قائده الذي قاد عملية إخمادها لم ينج من القتل على يد الحاكم في تلك الحملات الشهيرة من الاغتيالات (١).

• وإذا كانت التظاهرات والمنشورات والقتال المسلم ، قد كانت وسائل للمقاومة ، استخدمه الشعب في تلك الفترة ، على ما ذكرنا ، فإن هناك وسيلة طريفة تجمع إلى جانب التعبير جوانب من الفن ، وربها من الرهبة والخوف كذلك ، وهي تلك التي عثلت في التهاثيل التي كان الشعب يصنعها من الورق على هيئة الإنسان ، ليُحمّلها العرائض والشكايات والمظالم ، ثم ينصبها في طريق الحاكم بأمر الله ، ومن قبله العزيز ، ليرفع عن طريقها صوته ، ثم لا يقع في قبضة الغضب والإرهاب!

ولم تكن هذه الوسيلة خاصية من خصائص عصرى الحاكم والعزيز فقط ، بل إن ابن كثير يحدثنا أن الناس كانوا يكتبون ظلاماتهم للحاكم ، ه ولأسلافه في صورة قصص . . حتى إن أهل مصر عملوا صورة امرأة من ورق بخفيها وإزارها ، وفي يدها قصة بها من الشتم واللعن والمخالفة شيء كثير ، فلها رآها ظنها امرأة ، فلهب من ناحيتها ، وأخذ القصة من يدها ، فقرأها ، فرأى ما فيها ، فأغضبه ذلك جدًا ، فأمر بقتل المرأة . فلها تحققها من ورق ، ازداد غيظًا إلى غيظه الله متى لقد قيل إنه أضمر الانتقام من أهل الفسطاط جميعًا بسبب هذه الحادثة .

<sup>(</sup>١) الحاكم بأمر الله : ص ١٣٥ .

<sup>(</sup>٢) البداية والنهاية . جــ ١٢ ، ص ٩ .

فلها جاء شهر جمادى الآخرة سنة ١١٤ هـ (سنة ١٠٢٠م) ، جعل العبيد يغيرون على المدينة وينهبونها . ثم اشترك معهم الترك والمغاربة ، فأضرموا النيران في أطراف الفسطاط ، وهب سكان المدينة يقاتلون دون مدينتهم وثرواتهم . واستمرت هذه المعركة أيامًا ثلاثة . وعندما استفحل الأمر ، وأصبحت المدينة قاب قوسين أو أدنى من الدمار الشامل ، انقلب الأتراك والمغاربة إلى صف الأهالى ، وتحالفوا معهم ضد العبيد ، وذلك خوفًا على أقاربهم وذويهم الذين كانوا يسكنون المدينة ، وطالبوا الحاكم بمنع العبيد ، وهددوه بالإغارة على القاهرة وحرقها ، فاضطر لوقف هجوم العبيد ، وأصدر للناس مرسومًا بالأمان قرىء على منابر المساجد (١٠) ا

• وقبل هذه الحادثة الشهيرة والخطيرة في عصر الحاكم ، كان شغب قد وقع بين السلفيين \* السنيين » وبين الشيعة ، جعل الحاكم بأمر الله يعيد النظر في موقف الغلو والانحياز الشديد لفكرية الشيعة ضد السلفية ، على الأقبل فيها يتعلق بالمستوى الجهاهيرى ، فأصدر في رمضان سنة ٣٩٨ هـــ (سنة ١٠٠٧م) مرسومًا على جانب كبير من الأهمية يدعو فيه إلى التقريب بين المذاهب الإسلامية ، جاء فيه :

" لا إكراه في الدين . . مضى أمس بها فيه ، وأتى اليوم بها يقتضيه . معاشر المسلمين : نحن الأثمة ، وأنتم الأمة . . من شهد الشهادتين . . ولا يحل عروة بين اثنين ، تجمعها هذه الأخروة ، عصم الله بها ما عصم ، وحرم عليها ما حرم . . يطوى ما كان فيها مضى فلا ينشر ، ويعرض عها انقضى فلا يذكر ، ولا يقبل على ما مر وأدبر من إجراء الأمور على ما كانت في الأيام الخالية ، أيام آبائنا الأثمة المهديين . يصوم الصائمون على حسابهم ويفطرون ، ولا يعارض أهل الرؤية فيها المهديين . يصوم الصائمون على حسابهم ويفطرون ، ولا يعارض أهل الرؤية فيها هم عليه صائمون ومفطرون . وصلاة الخميس للذين بها جاءهم فيها يصلون ، وصلاة الضحى وصلاة التراويح لا مانع لهم منها ولا هم عنها يدفعون . يخمس في التكبير على الجنائز المخمسون ، ولا يمنع من التكبير عليها المربعون . يوذن

<sup>(</sup>١) الحاكم بأمر الله: ص ١٩٥، ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

بحى على خير العمل المؤذنون ، ولا يؤذى من بها لا يؤذنون . لا يسب أحد من السلف ، ولا يحتسب على الواصف فيهم بها وصف ، والخالف فيهم بها خلف . لكل مسلم مجتهد في دينه اجتهاده . ليكن ، عباد الله ، على مثل هذا عملكم منذ اليوم ، لا يستعلى مسلم على مسلم بها اعتقده ، ولا يعترض معترض على صاحبه فيها اعتمده (١).

• وإذا كنا نعتقد بالأهمية الكبرى لهذه الوثيقة ، التي أصدرها الحاكسم بأمر الله ف رمضان سنة ٩٨ هـ في الأمور التي تتعلق بشئون الدين والاعتقادرات ، والتي حوت أفكارًا وقيباً لا ينزال المسلمون المستنبرون يجاهدون في سبيل سيادتها وتطبيقها حتى في عصرنا هذا ، عندما يتحدثون عن التقارب بين المذاهب والفرق الإسلامية ، فضلاً عن توحيدها ، فإننا نلتقي في العصر الفاطمي بوثيقة أخرى ذات أهمية بالخة ، كادت أن تكون دستورًا اضطر الشعب الخليفة العزيز للى كتابتها وإصدارها ، ثم أخذ الناس في نسخها وتداولها ، بل وجعلوا منها مادة يعلمونها الصبيان في دور العلم ، ويتعلمون بواسطة قراءتها وكتابتها القراءة والكتابة في الكتاتيب مثلها في ذلك مثل القرآن الكريم .

فالمقريزى ، ينقبل لنا عن الوزير المؤرخ المعاصر للدولة الفاطمية ابن الصير في (المتعوف سنة ٤٧ هـ سنة ١١٤٧ م) وصاحب كتاب (الإشارة إلى من نال الوزارة)، أنه قد حدث في سنة ٣٧٧ هـ (سنة ٩٨٧ م) أن أحد التجار الغرباء الذين كانوا ينزورون القاهرة لأمور تتعلق بالتجارة قد قتبل في المنزل الذي كان ينزل فيه في ق قيسارية الإخشيد ، خلف جامع عمرو بن العاص ، وأخذ ما كان بحوزته من الأموال ، ويبدو أن القاتل السارق كان أحد رجالات الدولة ، واسمه قرشيق، الذي كان يتولى أحد المناصب المهمة في ق الشرطة السفلى ( بوليس مدينة الفسطاط ) . وحتى يغطى فعلته ، ألقى القبض على مجموعة من أبناء

<sup>(</sup>١) المصدر السابق : ص ١٤٧ ( نقلاً عن : ابن خلدون جد ٢ ، ص ٦٠ ).

التجار المصريين والسكان المجاورين لمكان الجريمة ، ولكن الناس شنعوا عليه ، وعلت أصواتهم بالاتهامات ، ورفعوا إلى الخليفة أن « رشيق » هذا هو الذى ارتكب الجريمة ، وأنه قد « دس على الرجل من قتله وأخد ماله . . وأنه اعتقل أبرياء مستورين » . فيا كان من الخليفة العزيز إلا أن استجاب لهذه العريضة التي رفعها شعب الفسطاط ، وكتب على ظهرها في شهر ذى الحجمة من نفس العام ذلك «التوقيم» الذى تلقفه الشعب واعتبره « ميثاقًا » على جهاز الحكم ، تقوم على هدى من قواعده ومعاييره العلاقة بين الحاكمين والمحكومين .

ولقد جاء في هذا التوقيع ، الذي وجهه الخليفة إلى وزيره يعقوب بن يوسف بن كلس ، ما يلي :

« سلم الله الوزير ، وأبقى نعمته عليه .

هذه رقعة رفعت إلينا بالأمس . الوزير \_ سلمه الله \_ يطلع عليها ، و يتدبرها . والأمر ، والله ، فظيع ، يسوء الأولياء ويسر الأعداء . وبالأمس ، كنا نضحك من « قَنّا خُسْرُو؟ ، واليوم ألجمنا بعار منى علينا في بلد نحن ساكنوه ، والأخبار تسير به في البلدان . وحسبك يقتل الأنفس في مواضع الأمن والطمأنينة في وسط عارة المسلمين ، وتؤخمذ الأموال . وقد وكل الأمر إلى رجلين (قادة الشرطمة) لا يخافان الله ، عز وجل ، ولا يتقيانه . والدنيا فانية ، والآجال متقاربة ، وإن أصبح الإنسان فيا يدرى أنه يمسى .

قوالله ، لو جرى مشل هذا في بلد بعيد عنا لوجب الاحتساب لله فيه ، فكيف تحت كنفنا وفي بلدنا ؟!

فليستقص الوزير سلمه الله ، عن هذه القصة ، ويبوتر الله ويبوترنا (أى يفتص) ، ويغسل هذا العار عن الدولة ولا يغمها به . فوالله الذي لا إله إلا هو ، وحق جدى ، رسول الله ، ولله ، ما كتبت هذه الرقعة إلى الوزير ، سلمه الله ، إلا وأنا خائف من نقم الله ، جلّ اسمه ، لكثرة تغافلنا وإهمالنا إلى أن صارت المعاملة في سفك الدماء وقتل الأنفس . فليس على هذا صبر ، ولا بدلك من الاستقصاء

على هذه القصة ، فأوثق الناس إلى أن تنكشف ، فينتقم من فاعلها ، وتبرأ إلى الله تعلل منه ، فيعمل الوزير ، سلمه الله ، فى ذلك عملاً يأجره الله عليه ونشكره ، ولايتوانى عنه . فليس ما تغسله عن أنفسنا بانكشاف هذه القصة قليلاً عند الله ، جل وعلا ، وعند عبيده من بعده .

وأنا أقسم على الوزير بحياتي ألا يتوانى عن هذا الأمر ، وليسرع بالفراغ منه ، وخلاص هؤلاء الرجال المساكين ( المعتقلين) من مديد من يطلب أموالهم وأنفسهم ظليًا وعدوانًا .

والشرط والمولاية قد صارت إرثاً ، فلينظم الموزيم ، سلمه الله ، أن يمولى الشرطتين إنسانين يخافسان الله ، عزّ وجلّ ، ويتقيانه ، فلا جمع الله مسالمها ولا ما يجيء منهما بتقلد .

فقدم ما أمرناك به في الوجوه ، وأظهره في الناس لتطيب أنفسهم ، وليعلموا أنا لا نغفل عن شيء يبلغنا لله فيه رضا ، ولهم فيه صيانة .

والله حسبي ، وعليه توكلي ، والسلام على الوزير ورحمة الله ، .

وينقل لنا المقريزى تعليق ابن الصيرف على هذا " التوقيع " ، الذى لم يصلنا كاملاً ، بقوله : " فنسخ أهل مصر هذا التوقيع ، وصار الصبيان في المكاتب يعلمونه كما يعلمون الحمد " (١) ، أي سورة الفاتحة التي تبدأ بالحمد شه .

<sup>(</sup>١) اتعاظ الحنفا: ص ٢٦٦ ٣ ٢٦٣ ،

•		

## الفصل التاسع أستباب الاضيحلال

دراسة للعوامل الاجتهاعية والسياسية والحربية
التي عجلت بنهاية النظام الفاطمي ، والآثار
الفكرية التي أثمرتها هذه العوامل ، فساعدت
على أن ثرث الدولة الأيوبية العسكرية خلافة
الفاطمين.

# غروب مالفاطميين

على أن " الوثائق " و " المواثيق " و " التوقيعات " ، ما كان لها وحدها ، مها كانت عباراتها ثورية ومتقدمة ، ومها كانت حاوية للحديث عن قيم العدالة والإنسانية ، أن تضمن لقيمها هذه بلوغ مرحلة التطبيق ، قضلاً عن الحفاظ على الاستمرارية والنقاء لهذا التطبيق . وليس بغير الرأى العام المنظم ، يستطيع شعب من الشعوب أن يجنى ثهار هذه الوثائق والمواثيق والتوقيعات . والأمر المؤكد ، أن اختلال هذا الشرط في مصر الفاطمية هو الذي حَرَمها أن تجنى ثهار هذا " التوقيع العزيزى " المهم ، كها حرمها من بعد ذلك أن تحافظ على تلك الصحوة التي قد صنعها الحاكم بأمر الله ، عندما تغلب على المجاعات ، وأباد الكثير من العناصر القبلية والعسكرية التي كانت تتصارع على السلطة والسلطان ، وتمزق شخصية المجتمع كل التمزيق .

#### الشدة المستنصرية

ونحن إذا استعرنا ، ولو للحظات ، تلك القصة التي تربط بدء تأسيس القاهرة بظهور النجم « القاهرة ، وترمز به إلى طبالع الدولة الفياطمية في مصر ، فإننا نستطيع أن نقبول إن هذا النجم وذلك الطالع الفاطمي قد أخذ في الأفول ، منذ أن بدأت سلسلة المجاعات الرهيبة التي عرفتها البلاد في عهد الخليفة المستنصر ( ١٠٣٥ ــ ١٠٩٤ م ، ٢٧٤ ـ ٤٨٧ هــ ) ، والتي بدأت أولاها سنة المستنصر ( صنة ١٠٥٧م) . وإذا كانت مدة حكم المستنصر قد ضرب بها المثل في

الطول الزمنى ، فإنها قد ضرب بها المثل كذلك في تكرار المجاعات وشديها ، حتى كادت أن تتصف بالدوام وأن تعجز عن تصويرها الأقلام !!

ففى سنة ٤٤٤ هـــ (سنة ١٠٥٢م)، وقع غلاء شديد نتج عن نقصان ماء النيل . ولكن هذا الغلاء ، لم يلبث أن تحول إلى مجاعة بسبب من سوء تدبير الوزير أبي محمد الحسن بن على بن عبد الرحمن اليازورى . فلقد كان هذا الوزير ، كما أشرنا من قبل ، راعبًا للفن والفنائين ، ولكن يبدو أن ثقافته الاقتصادية وخبرته في التجارة وقوائين الأسواق ، كانتا دون تذوقه للفن بكثير!

فلقد حدثت منافسات غير مشروعة بين عامة الخبازين وبين "العريف الرائيس) الذي كان يتولى مشيخة هذه الحرفة . وكان سعر الخبز يومها : "أربعة أرطال بدرهم وثمن " . فنزلت به المنافسة الكيدية غير المشروعة من جانب عامة الخبازين ضد رئيسهم ، إلى "عشرة أرطال بدرهم " ، وفرح الوزير بللك ، ولم يبصر عواقبه الاقتصادية ، بل وكافأ الذين بدءوا هذه المنافسة !!

وكانت العادة قد استقرت أن تودع بمخازن الخليفة كميات من القمح ، احتياطًا للطوارى ، بلغ قيمتها ، ، ، ، ، دينار ، ولكن الوزير الفنان لم ير ضرورة للمحافظة على هذا التقليد ، لأن القميح متوفر في الأسواق ، ورحيص السعر ، والخبز معروض على الناس بأسعار يتزايد رخصها يومًا بعد يوم ، فعلام يكون تخرين هذه السلعة ذات الأسعار غير الثابتة ؟! وبدلاً من القميح ، قام الوزير اليازورى بتخزين العسل والخشب والحديد والرصاص !!

وبعد ثلاث سنوات من تطبيق هذه السياسة الخرقاء ، وعندما حدث نقص في منسوب مياه النيل في سنة ٤٤٧ هـ ( ٥٥٠ ١ م) ، لم يكن لدى الدولة من غزون القمح « إلا جرايات من في القصور ، ومطبخ السلطان وحواشيه لا غير ! ».

وانتهز التجار الفرصة ، فأخذوا في تخزين القمح و إخفائه ، بل وقاموا بشراء محصوله من الزراع قبل نضجه . واضطربت أحوال البلاد ، ومات الوزير السازوري في هذه الظروف . وضجت الرعبة تخاطب المستنصر مباشرة ، حتى

بلغت عرائضها وشكاياتها وظلاماتها التي تصل إليه ثبانهائة شكاية فردية وجماعية في اليوم الواحد . ولمدة خس سنوات عاشت البلاد في فسوضى ، تغلب أثناءها الأقوياء من العمال على نواحيهم واستبدوا بأمورها ، وحدثت المصادرات لمن عنده شيء يصادر ، وامتد النهب والسلب إلى ممتلكات الخليفة حتى المحوجوه إلى بيع أغراضه ، ومتاعه وحاجياته (١)!

• وبعد مرور خس سنوات ، بدأت في سنة ٤٥٧ هـ (سنة ٢٠١٦م) المجاعة الكبرى التي عرفت باسم الشدة المستنصرية ، والتي قصمت ظهر النظام الفاطمي ، وأدت إلى عصر سيادة الجند والوزراء . ولقد بدأت هذه المجاعة بنقصان في مياه النيل ، صاحبه انتشار وباء شديد الفتك بالناس . وصادف ذلك كله ، اضعف السلطنة ، واختلال أحوال المملكة ، واستيلاء الأمراء على الدولة ، واتصال الفتن بين العربان ، (٢) ووجد المستنصر نفسه وجها لوجه ، حيال الخوارج المذين سعوا في دولته ، وبدلوا نعمة الله كفرًا ، وعصوا لولي أمرهم أمراً ، واستفسدوا أصناف عسكره عليه ، وأوحوا إلى المشارقة بأن أمير المؤمنين يقوِّى عليكم المشارقة ، وإلى المغاربة بأنه يقوِّى عليكم المشارقة ، وأغروهم بالإلحاف في السؤال ، بأن يعطيهم ما ذخره في خزانته من الأموال ، وكانوا يطلبون شيئًا فشيئًا ، وكان أمير المؤمنين لا يدفعهم عن طلب شيء ، وكانوا يطلبون شيئًا فشيئًا ، وكان أمير المؤمنين لا يدفعهم عن طلب شيء ، الطاهرون ، عليهم السلام ، أجعا ا ، (٢) ، حسب تعبير المستنصر نفسه .

وفى هذه الشدة ، التى استمرت سبع سنوات ، حدثت للشعب المصرى مأساة يعجز الخيال المعاصر والخصب عن الإحاطة بجوانبها وأبعادها . فرغيف الخبز ، بيع كما تباع التحفة النادرة « بزقاق القناديل » بمدينة الفسطاط ، « بخمسة عشر

<sup>(</sup>١) إغالة الأمة يكشف الغمة: ص ١٨ - ٢٣.

<sup>(</sup>٢) المصدر السابق: ص ٢٤.

<sup>(</sup>٣) السجلات المستمرية: ص ١٨٣.

دينارًا ؟ ! ! وأردب القمح بلغ سعره ثهانين دينارًا ! ! وبدأ الناس في ذبح الماشية التي نجت من الوباء فأكلوها ، ثم ذبحوا الخيل والبغال والحمير فأكلوها ، ثم ذبحوا القطط والكلاب ، بسبب ذلك ، أن بيع القطط والكلاب فأكلوها !! ولقد بلغ من ندرة الكلاب ، بسبب ذلك ، أن بيع أحدها ، كي يـؤكل ، بخمسة دنانير !! ثم وصلت المأساة إلى الحد اللي أكل الناس قيه لحوم بعضهم البعض ، وتألفت لللك عصابات تعلو أسطح المنازل وبيدها « سلب وحبال فيها كلاليب ، فإذا مر بهم أحد ألقوها عليه ، ونشلوه في أسرع وقت ، وشرحوا لحمه وأكلوه !!

ولقد جماء الوزيم يومًا للقماء المستنصر ، فهجم الجياع المدّين تجمهم روا حول القصر على بغلته ، وأكلوها !! فياكان منه إلا أن شنق جماعة منهم ! فياكان من الجمهور الجائع إلا أن أكل جثث المشنوقين !!

ولقد بلغت المأساة قمتها ، عندما باع الخليفة كل ما يملك ، ولم يبق له سوى «حصير » يجلس عليه ، وجراية من الخبز تتصدق عليه بها يوميًا ابنة أحد العلماء!! وعندما كانت نساء القصور يخرجن ، ناشرات شعورهن ، يصرخن : الجوع! الجوع! يردن الخروج من المأساة والهرب إلى العراق العباسى ، فلا تسعفهن الأجسام والقوى ، فيسقطن صريعات عند المصلى!! وعندما نهب الجياع الثائرون المكتبة المستنصرية ، وكان بها يومئذ ٢٠٠٠ ، ٢٠٠ كتاب (١)!!!

وكيا سبق أن أشرنا ، عند الحديث عن المجاعات ، التي اعترضت نظام المحاكسم بأمر الله ، إلى دور سوء الإدارة والظلسم الاجتماعي واحتكار التجار والموسرين للغلال ، وهم الذين قال المقريزي إنهم يستفيدون من المحن والشدائد، فإننا نشير هنا إلى أن عمق هذه المأساة وحِدّة هذه المجاعة ، لم تكونا تعنيان أن البلاد قد خلت من مخزون الغلال المكدس لدى التجار والموسرين ، وذلك ، بدليل ما حدث بعد أن بلغ المستنصر أن امرأة اشترت كمية من الدقيق بمبلغ ألف

<sup>(</sup>١) إغاثة الأمة بكشف الغمة : ص ٢٤، ٢٥. وتاريخ العرب : جـ٣، ص ٧٤٥.

دينار ، فأخذ الناس ينهبون دقيقها هذا وهي في الطريق إلى المنزل ، حتى لم يتبق لها منه سموى حفنة واحمدة نهبتها همي الأخرى ممع الناهبين ، فخبرتها قرصمة ، ثم ذهبت إلى مرتفع أمام قصر المستنصر ، ونادت بأعلى صوتها قائلة : \* يأهل القاهرة ا ادعوا لمولانا المستنصر ، الله أسعد الله الناس بأيامه ، وأعاد عليهم بركات حسن نظره، حتى تقوَّمَتْ عليَّ هـذه القرصة بألف دينار ؟!! . وعند ذلك امتعض المستنصر ، وهمدد الوالي بالإعمدام إن لم ينقد مما يمكن إنقاذه ممن أحوال الناس ، فجمع الوالى تجار البلاد ، ثم جاء بعدد من المسجونين الذين ينتظرون تنفيذ حكم الأعدام ، والبسهم زى كبار التجار والسَّرَاة والأعيان ، وأخذ يدخلهم واحدًا واحدًا إلى مجلس التجار ، ويعنقهم على حبسهم للغلال ، ورفعهم للأسعار ، ثم يأمر بقطع رقابهم ، الواحد بعد الآخر ، حتى خاف التجار أن تدور الدائرة على رقبابهم ، فاعتبذروا للوالى ، ورجبوه إطلاق سراحهم على أن يصلحوا شأن الحالة الاقتصادية للبلاد ، وقالوا له : ﴿ أَيُّهَا الأُمِّرِ ! في بعض ما جمري كفاية . ونحن نخرج الخلة ، وندير الطواحين ، ونخمر الأسواق بالخبز ، ونرخص الأسمار على الناس ، ونبيع الخبز رطلا بدرهم » . فرفض الوالي هذا السعر ، قائلاً : \* ما يقنع الناس منكم بهذا \* فاتفقوا على أن يكون سعره رطلين بدرهم واحد ، فأجابهم إلى طلبهم ، ووفوا هم أيضًا بها شرطوه (١٠)

### سيطرة العسكر

ولقد أدت هده الشدة ، التي لم يسبق لها مثيل في تاريخ مصر ، إلى أن استدعى الخليفة المستنصر حاكم «عكا» العسكرى ، الأرمنى الأصل ، بدر الجال على رأس جيش من رجاله ، كي يعيد الأمن للبلاد ، وليتولى الوزارة في سنة ١٤٧ هـــ ( سنة ١٠٧٥م ) . وعندما دخل بدر الجال قصر المستنصر ليتقلد الوزارة ، ٩ برز أمير المؤمنين من حجرات قصره إلى إيوانه ، فأفاض عليه حلة شرف

(١) إغاثة الأمة بكشف النمة : ص ٢٥ - ٢٧ .

كانت على جثمانه ، ونزع عن منكبه سيف الاقتمدار ، وقلده تقليد جده لأبيه بذى الفقار (١). وفوض إليه أمور الملك الذى استخلفه الله تعالى على سلطانه ، خلافة عنه فى دينه ودنياه ، ورفعا به إلى محل لا يستحقه سواه ، (٢) ولقبه « بالسيد الأجل ، الأفضل أمير الجيوش ، سيف الإسلام ، ناصر الإمام ، كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين » (٣).

ولقد أخذ بدر الجهالى وقواته العسكرية فى إعادة الأمن إلى البلاد ، وضبط وحدثها الإقليمية ، والقضاء على جيوب المتغلبين الذين استقلوا ببعض الأجزاء ، وروى سيوفه بدماء خسين ألف متمرد من قبيلة لواته ، كها هزم طوائف الأعراب فى البوادى طائفة بعد طائفة (٤).

غير أن هذا الأمن والاستقرار الذى بدأ على يبديه ، إنها كان يؤرخ لبدأية عصر جديد ، عصر سلطة الوزراء العسكريين وطغيان الأجناد ، وتقليص الخصائص التي تميزت بها المدولة الفاطمية ، حتى جاء الموقت الذى وجدنا فيه الأقضل بن بدر الجهالى الذى تحليف أباه فى السلطة سنة ١٠٩هم ( سنة ١٨٩هم ) يغلق الأكاديمية العلمية التي بناها الحاكم بأمر الله ( دار الحكمة ) ، بحجة انحراف بعض المدارسين فيها ، كها يتخل عن المذهب الشيعي ، ويحرم " نزار " بن المستنصر حقه فى الخلافة ليضع مكانه " أخاه " المستعلى " ، كي يكون طوع بنانه ، كما أفقد منصب الخلافة كيل ما كان له من قبل من هيبة وجلال ، وحتى وجدناه يخلف لنا ثروة وجد فيها عندما قتل سنة ١١١١م ( سنة ١٥٥هم ) ثلاثة ملايين من الجنيهات الذهبية ، وحتى قبل إن ثمن اللبن الذي كنان يحلب من أبقاره من الجنيهات الذهبية ، وحتى قبل إن ثمن اللبن الذي كنان يحلب من أبقاره الخاصة ، قد بلغ في العام الواحد ١٥٥، ١٥ جنيها (٥).

<sup>(</sup>١) الجدد هذا ، هو الرسول عليه الصلاة والسلام ، والأب هو على بن أبي طالب ، الذي قلده الرسول السيف المسمى ذا الفقار .

<sup>(</sup>٢) السجلات المستنصرية : ص ١٠٨.

<sup>(</sup>٣) المصدر السابق: ص ١٤٧. (٤) المصدر السابق: ص ١٨٤.

<sup>(</sup>٥) خطط المقريزي : جدا ، ص ٤٥٩ ، وسيرة القاهرة : ص ٨١٤٥

وإذا كان الأفضل قد قتل على بد \* المأمون البطائحي \* ، فلقد قتل المأمون على يد أحمد بن الأفضل ، الذي أعاد سيرة أبيه في تقليل الاهتمام بالمذهب الشيعى ، حتى لقد عين بعض القضاة السنيين مكان الشيعة ، بل وقطع الخطبة للخليفة من فوق المنابر وأحل اسمه محله ا

وليت هذا الأمر قد ضمن الأمن للمواطنين . وليت هذه التطورات قد أبعدت شبح المجاعات والأزمات عن البلاد . إذن لكان هناك مقابل حصلت عليه مصر في نظير تقهقر حكم المنطق والعقل والحكمة أمام سلطان الوزراء المستبدين غير المستنيرين ، وسلطات الأجناد المذين سيطروا على كل شيء في البلاد . بل إن الأمر الذي جعل من هذه التطورات المداخلية في البلاد خسارة لا مكسب فيها ، وسلبًا لا إيجابيات فيه ، هو أن أشباح المجاعات والأزمات الغذائية ، قد ظلت تهدد البلاد من حين إلى حين ، وإن تكن في فترات عدودة ومؤقتة ، كها حدث في عهد الخليفة الآمر بأحكام الله ( ١١٠١ - ١١٣٠ م ، ٩٥ ع ـ ٢٥ هـ ) ، زمن وزارة الأفضل ، وفي عهد الخليفة الخافظ لدين الله ( ١١٠٠ - ١١٤٩ م ٢٥ ع ٤٥ هـ ) ، زمن وزارة الأفضل ، وفي عهد الخليفة الفائز ( ١١٥٤ م ٤٩٥ م ١١٥٠) .

وليت هذا الأمر قد ضمن الاحترام لمنصب الخلافة ، والأمن للمخلفاء اللين مارسوا سلطاته ، ولكن الذي حدث هو أن الخلفاء قد أصبحوا أسرى جبروت الوزراء وقواتهم المسلحة . بل لقد أصبح أمر تولية هؤلاء الخلفاء والتخلص منهم محل نظر هؤلاء الوزراء . وعندما قتلت الإسماعيلية الباطنية الخليفة الآمر بأحكام الله ابن المستعلى ، في ٢ من ذي القعدة سنة ٢٥ هـ (سنة ١١٣٠م) ، تولى سلطات الخلافة مسن بعده غلام أرمني من غلمانه لمدة ثلاثة أيام (١) حتى حضر الوزير أبو على أحمد بن الأفضل بن بدر الجهالى ، فأقام الحافظ خليفة على البلاد بعد مضى أكثر من سبعين يومًا على قتل الخليفة الآمر !!

<sup>(</sup>١) البداية والنهاية : جـ ١٢ ، ص ٢٠١ ، ٢٠١ . وسيرة القاهرة : ص ١٤٢ .

### الخطر الصليبى

وإذا كانت المجاعات والأزمات الاقتصادية ، التي شهدتها مصر منذ الشدة المستنصرية العظمي ، قد أدت بالخلافة الفياطمية إلى أن تفقد مضمونها وحيويتها وشبابها على يد عهد الوزراء المستبدين ، وسيطرة الأجناد الغرباء عن الفكر والعقل والثقافة العربية ، بما جعلها تعيش شيخوخة طويلة ، استمرت نحو قرن من الزمان ، فإننا نجد بعد وفياة الخليفة المستنصر في سنة ٩٤٠١م بعدة شهور ، البابا \* أربانوس، يعقد مؤتمرًا كنسيًّا في مدينة « كلرمونت » بالجنوب الشرقس لفرنسا ، ويلقى بــه في ٢٦ من نوفمبر سنة ١٠٩٥م أول خطاب يدعو الغرب المسيحي إلى شن الحروب الصليبية على الشرق العربي المسلم (١)، وهي الحروب التي عاشت البلاد العربية الإسلامية أحداثها الجسام والطوال والدامية نحو قرنين من الزمان (١٠٩٧ \_ ١٢٩١م) ، والتي كانت بمثابة الخطر الداهم والغاشم الذي استفز واستنهض عناصر القوة المسلمحة في العالم العربي ، وأسلم زمام الأمور فيه لرجال صناعتهم الجندية والحرب ، بدءوا يواجهون حملات أوربا السبع الشهيرة ، وغزوات الدويلات اللاتينية التي أقامتها هذه الحملات في المشرق العربي والشمال العربي ، بادئين بدولة صغيرة في \* الموصل ، أقامها \* عهاد الدين زنكي سنة ١١٢٧م، ومن بعده " نمور الديسن " (سنة ١١٤٦م) ، الـ ذي اتخذ من " حلب قاعدة لتقدمه تجاه الصليبين ، حتى إذا مد نفوذ دولته إلى مصر بواسطة جيش «الغز» والأتراك المدى قاده « أسد الديس شيركوه » و « صلاح الديس الأيوبي » ف سئة ١١٦٩م ـ ( ١٤٥هــ) ودانت بليشه مصر كاملة بعد وفاة الخليفة الفاطمي العاضد سنة ١١٧١م (سنة ٧٧٥ه)، أصبحت جميع أنحاء بلاد العرب المسلمين تقريبًا تحت سلطان القادة العسكريين ورهن إشارة الجيوش الجرارة التي وضعت كل الإمكانيات تحت تصرفها كي تتمكن من مواجهة أخطار الصليبيين ، ومواجهة مهام إحراز الانتصار على إماراتهم التي أقاموها في بلاد الشام ، وحملاتهم

<sup>(</sup>١) تاريخ العرب: جـ٣، ص ٧٥٢.

التي وجهوها مباشرة إلى مصر باعتبارها القلب الذي لا بـد من إسكاته ، حتى تستسلم لهم القدس والشام .

فإذا كانت أخطار المجاعات الداخلية في مصر ، قد أفقدت الخلافة الفاطمية والنظام الفاطمي مضمونه الحقيقي ، وأبقت على الشكل قرابة القرن من الزمان ، فإن الخطر الصليبي الخارجي الذي تحول بعد قيام الإمارات اللاتينية في الشام ، والمغزو الذي حاولته لاحتلال مصر إلى خطر داخلى ، بالنسبة للعالم العربي كله ، قد أفقد هذه الخلافة الفاطمية ، ما تبقى لها من مظاهر وشكليات . وكها استدعى الخليفة المستنصر القافد العسكري الأرمني بدر الجمالى ، ليقبض على أزمة الأمور في سنة ١٧٥م ، فلقد استدعى الخليفة الشيعى الفاطمي العاضد جيش نور الدين السنى السلفي للذي و كان قد أذل الشيعة بحلب ، وأبطل شعارهم ، وقوى أهل السنى السنة ، (١) لينقذ مصر من الصليبين .

وكما وصف المستنصر بدر الجمال في مرسوم توليته الوزارة بأنه: «السيد، الأجل، الأفضل، أمير الجيوش، سيف الإسلام، ناصر الإمام، كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين » (٢) نجد العاضد يصف أسد الدين شيركوه في مرسوم توليته الوزارة بأنه: «السيد الأجل، الملك المنصور، سلطان الجيوش، ولى الأئمة، بجير الأمة، أسد الدين، كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين! » (٣). فأمام الأخطار الداهمة، تواجعت الخلافات المذهبية، والفكر والاعتقادات، ولم يعد هناك صوت ولا سلطان سوى صوت الحرب وسلطان الجيوش. ومن ثم، فإننا لا نغالي إذا قلنا: إن الجولة التي بدأها ضد مضمون الحكم الفاطمي بدر الجمالي ومن جاء بعده من الوزراء، هي نفس الجولة التي ختمها

<sup>(</sup>١) كتاب الروضتين : جـ ١ ، ص ٤٤١.

<sup>(</sup>Y) أأسجلات المستنصرية: ص ١٤٧.

<sup>(</sup>٣) كتاب الروضتين : جـ ١ ، ص ٢٠٤ .

وانتهى بها إلى نهايتها الطبيعية أسد السدين شيركوه وابن أخيه صلاح السدين الأيوبي فيها بين مسنتي ١١٦٩م ، ١٧١١م.

أما كيف انتهى الخطر الصليبى بالأحداث التى بدأها بدر الجمال زمن المستنصر إلى ما صنعه صلاح الدين الأيوبى بالعاضد والخلافة الفاطمية عمومًا ، فللك ما نستطيع تتبع خيوطه إذا نحن وعينا دلالة هذه الأحداث التى نجملها فى هذه النقاط:

● كانت الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٧ \_ ١٠٩٩ م) قد صادفت في المشرق العربي الضعف العباسي والسلجوقي والفاطمي ، مما جعلها تحقق انتصارات مذهلة ، وتبنى لها مراكز وقواعد هامة في هذه البلاد .

فلقد طوقت العالم العربى من الشهال، وأقامت «كونتية الرها» شهالى العراق وسوريا في منة ١٠٩٨م، تحت حكم الأمير الإقطاعي «بلدوين» ابن كونست بولونيا.

وفى نفس العام ( سنة ١٠٩٨ م) استطاع الصليبيون أن يقيموا لهم في الشمال الغربي لسوريا قاعدة جديدة تحت اسم « مقاطعة أنطاكية » يحكمها الأمير الإقطاعي « بوهمند» .

وفى سنة ١٠٩٩م، استطاع الصليبيون إقامة « مملكة القدس » ، التى وصلت حدودها من خليج العقبة على البحر الأهر إلى الساحل الفلسطيني على البحر الأبيض ، بيا فى ذلك ميناء بيروت ، وحاذت نهر الأردن من ناحية الشرق ، والتى تشبه خريطتها من الناحية الإستراتيجية ، خريطة دولة «إسرائيل» إلى حد كبير، وحكم هذه المملكة الملك «جودفري» ، الذي لقب «بارون القبر المقدس وحاميه» .

وفى سنة ١١٠٩م، استطاع الصليبيون أن يخضعوا عددًا آخر من المدن الساحلية العربية ، وأن يقيموا "كونتية طوابلس" التي حارب في سبيل تكوينها الأمير الإقطاعي "ريموند» (١).

<sup>(</sup>١) تاريخ العرب : جـ٣، ص ٧٥٤ـ٧٦١.

ولقد ظلت شوكة الإمارات الصليبية قوية طوال النصف الأول من القرن الثاني عشر المبلادي ، وحتى بعد أن قامت دولة \* الأتابكة \* في الموصل على يد عهاد المدين زنكي سنة ١٢٧م ، المدى استطاع أن يحرر شهالي العراق والشهال الشرقي لسوريا من حكم الصليبين ، عندما أسقسط « كونتية الرها ، سنة ١١٤٤م. وحتى بعد أن تولى نور الدين مكان عهاد الدين سنة ١١٤٦م، وتقدم بمقر عاصمته غربًا إلى حلب تمهيدًا لدخول المعارك الفاصلة لتحرير الأرض العربية الإسلامية ، وبعد أن دخلت إمارة دمشق العسربية طوعًا في دولته سنة ١١٥٤م، حتمي بعد هـذه التطورات التي كنانت تمثل مدًّا عربيًّا إسلاميًّا ، ويقظة أذكت الأخطار الصليبية الاستعمارية مشاعرها ، فإن ميزان القوى بين العمرب المسلمين وبين الصليبيين اللاتين لم يكن يسمح لنور الدين بأن يبدأ الزحف الشامل لتحرير كل الأرض ، كما لم يكن يسمح للصليبين بالاطمئنان إلى أن مقامهم في هذه الأرض سيكون دائيًا ومستقرًا دون أن يجرفهم التيار. ذلك ، أن العامل الذي كان لا بد من تحققه كى بحسم هذا التناقض ويستقطب هذا التوازن إلى صالح العرب المسلمين ، كان هو انضهام مصر إلى دولة نور الدين ، وبذلك يطوق الصلّيبيون من الشرق والشهال ومن الغرب والجنوب ، فيتحدد لهم المصير المحتوم ، وهمو العودة إلى أورباعن نفس الطريق الذي جاءوا منه : مياه البحر المتوسط !!

ولم تكن مصر تعنى فى هذه العملية إمكانياتها الكبرى وحدها ، بل لقد كانت تمثل الطريق لمساعدات أدبية ومادية يمكن أن تأتى من المغرب ، الذى كانت تحكمه إذ ذاك دولة \* الموحدين \* ، وهى الدولة التى كانت شديدة الحاسة لإزالة الحكم الصليبين وانتصاراتهم هده الحكم الصليبين وانتصاراتهم هده كانت تشد أزر المسيحيين أعداء \* الموحدين » فى شهالى بلاد الأندلس .

ومن هنا ، كنان الصراع المرير ، البارد حيثًا والساخن حيثًا آخر ، بين الصليبين وبين نور الدين على امتلاك مصر ، وأحيانًا كانت تراود الصليبين أحلام امتلاكها ، وأحيانًا تتواضع هذه الأحلام لتقف عند حدود التحالف مع النظام الفاطمي المتهالك فيها وفرض الإتاوات المالية عليها ، وأحيانًا أخرى كانت

تتواضع هذه الأحلام درجة ثالثة ، لتقف عند حدود التمنى لأن تبقى مصر بمعزل عن أيدى نور المدين ، حتى ولو لم تخضع خضوعًا مباشرًا أو غير مباشر لهم ، شريطة أن تظل أمورها فوضى ، حتى لا تستيقظ البقظة التى تجعلها تمد يدها و إمكانياتها ، تلقائيًا ، لأشقاء المشرق في المعركة المشتركة ضد الصليبيين .

• وعندما توارت هيبة الخلافة الفاطمية ، وفقدت مضمونها على يد بدر الجمالى في سنة ١٠٧٥م ، وتولى مكانه ابنه الأفضل سنة ١٠٧٤م . (سنة ٤٨٧ه هـ) ، لي سنة ١١٥٥ هـ (سنة ١١٢١م) ، ثم ليعود ابنه أحمد ليقتله المأمون البطائحى في سنة ١٥٥ هـ (سنة ١١٢١م) ، ثم ليأتسى الخليفة ابن الأفضل ليثأر لأبيه بقتل المأمون البطائحى وتولى الوزارة ، ثم ليأتسى الخليفة الحافظ المغلوب على أمره ليقتل أحمد بن الأفضل ، ويولى الوزارة مكانه الوزير الخرمنى المسيحى بهرام ، فيدور الصراع بين بهرام هذا وبين رضوان بن الواخشى ، لينتهى هندا الصراع بمقتل رضوان وتحول بهرام من وزير إلى مجرد مستشار في قصر الخليفة ، وذلك ليعود الصراع على الوزارة مرة أخرى في عهد الخليفة الظافر الخليفة الظافر الداري السلام وابن مصال ا

ولما كانت فترة الصراع بين ابن السلام وابن مصال على الوزارة ، هى الفترة التى أخذ فيها نجم « الدولة النورية » في المشرق في العلو والارتفاع ، فلقد نبت في هذه المرحلة فكرة الاستعانة بنور الدين وجيشه ونفوذه في هذه الصراعات ، ومن ثم ، استيقظت أكثر فأكثر عيون الصليبين لمصر ولما لها من إمكانيات ، وما تمثله من أخطار إذا هي أضحت امتدادًا لدولة نور الدين في الغرب والجنوب.

ولقد انتهى النزاع المسلح بين ابن السلام وابن مصال بمقسل الأول ، ثم لحقه الثانى بعد قليل ، بل لقد لحقهما الخليفة مقتولاً هو الآخر على يد رابع ، عاد فقتل هو وأولاده بعد قليل !!

ثم تسلم الوزارة وزير لقب نفسه ﴿ بالملك الصالح ﴾ ، هو طلائع بن رزيك ، الذي عين الخليفة العاضد سنة ١٦٠ م ( سنة ٥٥٥ هـ ) بعد أن مات الفائز ، ليعود العاضد فيقتله ، ويولى الوزارة بدلاً منه ابنه العادل ، الذي خلعه ، ثم قتله أمير الصعيد «شاور» الذي تولى الوزارة ليدخل حلقة جديدة ، ولكنها أخيرة ، من الصراع ضد « ضرغام» ، وليدخل جيش نور المدين إلى مصر في عهدهما ثلاث مرات ، كانت :

أولاها: ١٦٣ ١ م ... ( ٥٥٩ هـ ) استجابة لطلب " شاور" في صراعه ضد "ضرغام" اللي استعان بالصليبين . وبعد قتال دار بين الجيشين ، عادا إلى فكرة التوازن ، واتفقا ممّا على إخلاء البلاد . وفي هذه الحملة ، قتل أحد جنود الشام "ضرغام " الذي هام على وجهه بعد هزيمته ، فخرج " من باب زويلة ، والعامة تلعنه وتصبح عليه " ، كها قتل ابنه على يد " شاور " (١) .

وثانيتها: ١١٦٦م - ( ٥٦٢ه هـ) لمقاومة الصليبين الذين حضروا هذه المرة بدعوة من « شاور» ، الذي خاف نور الدين ، بعد أن نقض ما تعهد له به من مال في الحملة الأولى ، وبعد قسال دار بين الجيشين ، عادا ثانية إلى فكرة السوازن ، واتفقا على الانسحاب من البلاد . ولكن شاور استطاع هذه المرة أن يرغم السلطان العاضد على أن يكون للصليبين فرسان يقيمون على أبواب القاهرة ، والمفاتيح معهم ، ! وأن تدفع البلاد جزية لهم !

وثالثتها: ١١٦٨م - (٥٦٤م هـ) ، وكانت مناسبتها هذه المرة ، أن اللعبة الخطرة التي أخد وزراء البلاط الفاطمي وقواده بهارسونها ، قد جعلت بعض المنافسين لشاور من أمثال " يحيى بن الحياط " و " ابن قرجلة " يتفقون مع الصليبين على غزو البلاد . وحاول شاور الاستمرار والمضى في ذات اللعبة ، فصالح الصليبين على أن يدفع لهم " " ، " ، " ، " ، ا دينار مصرية في نظير رجوع جيشهم ، وذلك " بعد أن أخبرهم أن هواه مع التسليم لهم ، ولا يمنعه من ذلك إلا الخوف من نور الدين ، والعاضد ، وعدم موافقة المسلمين " ، وكان يسميهم «الفرج " ، لا " الفرنج " ا!

<sup>(</sup>١) كتاب الروضتين : جد ١ ، ص ٤٢٠ .

ولكن العاضد بعث برسالة سرية إلى نبور الدين يستدعي جيشه ، وجعل داخل أوراق الرسالة « خصلات » من شعور أميرات البيت الفاطمي ، وكتب فيها: « هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج » . كها تعهد له بأن يكون له ثلث بلاد مصر ، وذلك غير إقطاعات جيش أسد الدين شيركوه الذي طلب إقامته الدائمة في البلاد .

وعندما وصل جيس نور الدين بقيادة أسد الدين شيركبوه ، وصحبه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي ، وهزم الصليبيين ، ووصل القاهرة في ٤ من ربيع الآخر سنة ٥٦٤ هـ. (سنة ١٦٨ م) ، أراد شاور أن يدبر مؤمراة لاغتيال أسد الدين ، فنهاه عن ذلك ابنه الكامل ، ثم عجل صلاح الدين باغتيال شاور في ١٧ من ربيع الآخر سنة ٤٦٥ هـ ، فتولى الوزارة بدلاً منه أسد الدين شيركوه ، الذي خلع عليه العاضد، ولقبه قيالملك المنصور أمير الجيوش » . وأصدر لتوليه الموزارة منشوراً قرىء على منابر المساجد ، جاء فيه : ق من عبد الله ووليه أبي محمد ، العاضد لدين الله ، أمير المؤمنين ، إلى السيد الأجل ، الملك المنصور ، سلطان الجيوش، ولى الأقمة ، أسد الدين ، كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين ، أبي الحارث شيركوه العاضدي . عضد الله به الدين ، وأمتم بطول بقائه أمير المؤمنين أهلاً لحمله ، والحجة عليك عند الله بها أوضحه لك من أمانية رآك أمير المؤمنين أهلاً لحمله ، والحجة عليك عند الله بها أوضحه لك من مراشد سبله ، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة ، واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت أرائتسبت ) خدمتك إلى بنوة النبوة ، واتخذه للفوز سبيلاً . ولا تنقضوا الأيمان بعد وتكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ع ١٠٠٠ .

واستدعى أسد الدين القاضى الفاضل ، ليتولى له شئون ديوان المكاتبات والإنشاء ، وأقطع بلاد مصر للجنود الذين قدموا معه (٢). وتنفست البلاد الصعداء

<sup>(</sup>١) كتاب الروضتين : جـ١ ، ص ٣٨٩. ٣٠٣ .

<sup>(</sup>٢) المصدر السابق: جدا، ص ٤٠٢.

بزوال الخطر الصليبي عنها ، وبإنقاذها من فوضى الصراعات التي كانت لا تنتهى ولا تهذأ على المناصب والوزارات . ومدح الشعراء الدوزير الجديد ، وصبوا لعناتهم على الوزير المقتول ، وقال الشاعر العرقلة « أبو الندى حسان بن نمير الكلبي » (٤٨٦ ـ ٥٦٧ هـ ) في أسد الدين :

و « شاورُ » كلبُ للرُّجال عقورُ على مثلها كسان اللَّعينُ يَسدُورُ (١)

هو الأسدُ الضَّارى الذي جلَّ خطيهُ بني وطني ، حتى لقيد قال قيائلُّ

• وفي الموقت الذي كان العاضد يظن ويحسب أن أسد الدين وجيشه لن يكونا بالنسبة للخلافة الفاطمية الشيعية أكثر بما كان بدر الجالى وجيشه ، وأن مظاهر الخلافة وشكلياتها وخاصة أشخاص خلفائها ، ستظل على الأقل دون تغيير ، في ذلك الموقت كان الرأى العام في الشام ، الذي جهنز لأسد الدين هذا الجيش ، يطلب إليه تغيير أوضاع مصر تغييرًا جذريًا ، وإزالة الخلافة الفاطمية ، وتوحيد مصر والشام توحيدًا عضويًا ، لأن المعركة الملحة ضد الصليبين تقتضى ذلك ، ولا تحتمل البطء فيه ، بل وباعتبار هذه المعركة هي التي أملت ذهاب هذا الجيش إلى هذه البلاد . وعن كل ذلك يعبر الشاعر عهاد الديس الكاتب في تهنئته لأمد الدين ، عندما يقول :

فتحست مصر وأرجسو أن تصير بها رد الخلافة عباسيسة ودع المدعمي لا تقطعس ذنب الأفعمي وترسلمه

ميسرا فتح بيت القدس عن كثب فيها فيها منقلب فيها يصلحون منقلب فيها في المؤس كالذنب (٢)

وبعد وزارة دامت شهرين وخمسة أيام ، توفى أسد الديس شيركوه في ٢٢ من
 جمادى الآخرة سنة ٢٤ ٥ هـ ، بسبب كثرة الأكل ، وشدة " المواظبة على تناول

<sup>(</sup>١) المصدر السابق: جدا، ص ٣٩٩.

<sup>(</sup>٢) المصدر السابق: جدا ، ص ٤٠٤ ، ٤٠٤ .

اللحوم الغليظة ١ ، ١٤ أدى إلى أن « اعتراه خانوق عظيم ، فقتله ، رحمه الله ١ (١)! فتولى الوزارة بعده صلاح الدين الأيوبى ( ١١٣٧ ـ ١٩٣ ـ ١٩٩ م ، ٥٣٥ ـ ٥٨٩ هـ) فى ٢٥ من جمادى الآخرة سنة ٢٥ هـ ، وخلع عليه الخليفة العاضد خلعة الوزارة ، وكانت « عهامة بيضاء تنيسى بطراز ذهب ، وثوب دبيقى بطراز ذهب ، وجبة تحتها سقلاطون بطراز ذهب ، وطيلسان بطراز دفيق ذهب ، وعقد جوهر قيمته عشرة آلاف دينار ، وسيف محلى بجوهر قيمته خسة آلاف دينار ، وفرس حجر (أنثى ) ـ صفراء من مراكب العاضد قيمتها ثهانية آلاف دينار لم يكن بالديار المصرية أسبق منها ، وطوق ، وتخت ، وسرفسار ذهب مجوهر ، وفى رقبة الحجر مشدة بيضاء وفى وأسها مائتا حبة جوهر ، وفى أربع قوائم الفرس أربع عقود جوهر ، وفى وأسها مشدة بيضاء بأعلام خوهر ، ومنشور الوزارة خوب . ومع الخلعة عدة بقع ، وعدة من الخيل ، وأشياء أخر ، ومنشور الوزارة ملفوف فى ثوب أطلس أبيض» (١)!

وظلت أصوات دمشق والشام تلح على صلاح الدين ـ كما ألحت من قبل على أسد الدين شيركوه ـ أن يزبل من مصر خلافة الفاطميين ، ولكن صلاح الدين قد أثر التريث حتى يعلم موضع قدميه وأقدام جيشه في هذه البلاد ، لأنه كان يشعر بشيء من الخطر الذي بخشاه من جانب النظام الفاطمي . وعلى حد تعبيره ، فإن جنوده لا وإن ملكوا ، ونالوا مقاصدهم وأدركوا ، فإنهم يعيشون لا بين أمة لا يعرفونها ، بل ينكرونها ولا يألفونها » ، وأنهم حيثها ذهبوا يرون لا وجوها هناك بهم عابسة ، وأعيناً للمكائد متيقظة ، وعن الود ناعسة ا ، (").

وذلك ، لأن المجتمع المصرى العربى قد كمان ينظر إلى همؤلاء الجنود " الغمز والأثراك" نظرة المنقذ ممن خطر الفرنج ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يجد بعد جسورًا

<sup>(</sup>١) المصدر السابق: جدا، ص ٢٠٥٠ . ٤٠٦.

<sup>(</sup>٢) المصدر السابق: جدا ، ص ٤٣٩ .

<sup>(</sup>٣) للصدر السابق : جدا ، ص ١٤١٠ .

حضارية عميقة وسهلة تصل حياته بحياتهم ، ولا أن ينسى أن أرضه قد أصبحت لهم إقطاعات . ولقد كان الكثيرون من جنود جيش صلاح الدين وقادته يدركون ذلك ، ونحن نجد لبعضهم عبارات ذات دلالة بالغة الأهمية في هذا الصدد، عندما قالوا لأسد الدين شيركوه أثناء مجيئهم في المرة الثانية إلى مصر سنة ١٦٦٨م .. (سنة ٢٦٥هـ): إن " كل من في هذه الديار من جندي وعامى وفلاح عدو لنا ، ويودون لو شربوا دماءنا (١٠٠٠).

ولم يكن سوى الخطر الصليبى المداهم والغاشم هو المدى أوجد الأرضية المشتركة بين المجتمع المصرى العربي المتقدم نسبيًّا ، وبين هولاء الأجناد الغز والأترك المنتركة بينهم والأترك المنتركة بينهم وبين المصريين ، لأنهم لم يكونوا أهل حضارة ولا تقدم ولا شمىء لديهم من هذا القبيل .

غير أن صلاح الدين الأيوبى ، قد أخل في التمهيد التدريجي لإزالة حكم الفاطميين نهائيًا من البلاد ، لا على أن تتبع دولة نور الدين بالشام ، و إنها على أن يستقل هو بها ، كخطوة نحو أن تتبعه وتتبعها دولة نور الدين التي بالشام !!

وعندما انتصر على الأسطول الصليبي الذي جاء لاحتلال البلاد ، والذي نزل في دمياط أول شهر صفر سنة ٥٦٥ هـــ (سنة ١٦٩ ١م) (٢) ، فأقام بمياهها خسين يوماً ، كان يقترب بـذلك الانتصار من قلوب المجتمع المصرى ، بقدر اقتراب الخطر الصليبي من هذا المجتمع .

وعندما أخذ في سنة ٥٦٦ هــــ( سنة ١١٧٠م) يقيم المدارس السنية السلفية ، بادئاً بمدرسة للشافعية في أول العام ، وبأخرى للمالكية في منتصف شهر المحرم،

<sup>(</sup>١) كتاب الروضتين : جـ ١ ، ص ٣٦٤ .

<sup>(</sup>٢) المصدر السابق: جـ ١ ، ص ٤٥٧ .

وبثالثة للشافعية كذلك في منتصف شهر شعبان (١) وهكذا دواليك ، كان يضع الأرضية الفكرية التي سيقوم عليها هذا التغيير.

وعندما عزل في العام نفسه « قصاة مصر لأنهم كانوا شيعة ، وولى قضاء القضاة بها لعدر الدين عبد الملك بن درباس المارداني الشافعي فاستناب في سائر المعاملات قضاة شافعية » (٢) ، كان يضمن إلى جانبه سلطات وأجهزة ضخمة تعينه على إجراء هذا التغيير .

وبعد ذلك ، استطاع صلاح الدين أن يقيم الخطبة للخليفة العباسى ، بدلاً من العاضد ، في الإسكندرية أولاً ، شم في الفسطاط ، شم بعد ذلك في القاهرة ، قبل أسبوع من وفاة العاضد ، الدى قيل إنه امتص سما كان قد وضعه تحت فص خاتمه ، عندما علم بقطع الخطبة له ، وكان يومئل مريضاً ملازماً لفراشه ، قيات في يوم عاشوراء سنة ٧١٥ هـ (سنة ١١٧١م) (٣) . وبموته هذا ، انتهت خلافة الفاطميين ، التي دامت في مصر أكثر من قرنين من الزمان ، قضت أحدهما قوية عزيزة ذات حضارة ضربت جذورها في أعياق المجتمع ، الذي كان قد أصبح يومئل مجتمعاً عربيًا كامل التعريب ، وقضت الآخر ضعيفة الجانب . حتى جاءتها سلطة صلاح الدين الأيوبي ودولته الجديدة الشابة ، كي الجانب . حتى جاءتها سلطة صلاح الذين الأيوبي ودولته الجديدة الشابة ، كي المفكري والفلسفي الذي ميز ما بين خلافة الفاطميين وسلطنة الأيوبيين . ولتكتب في تاريخ نضالها صفحات من البطولة ، لعلها أروع ما حفل به هذا التاريخ من صفحات في تلك العصور.

<sup>(</sup>١) المصدر السابق: جدا ، ص ٤٨٦ .

<sup>(</sup>٢) البداية والنهاية : جد ١٢ ، ص ٢٦٣ .

<sup>(</sup>٣) كتاب الروضتين : جـ ٢ ، ص ٤٩٢ ، ٤٩٩ ، ٥٠٤ .

## الفصل العاشر سنّية الأيوبيّين تحوآثا دالفاطميّاين

 دراسة للعقبات التي اعترضت صلاح الدين الأيوبي في جهوده الرامية كي يعيد النظام والدولة السنية إلى مصر الشيعية . . وكيف تم له ذلك
 . والأسلحة الفكرية ، والنشاط العسكسرى الذي استخدمه .

# أشواك على طريق صكل حالدين

وإذا كانت الأخطار الخارجية التي كانت تتهدد مصر والقاهرة ، مضافاً إليها فرضى الاضطرابات الداخلية التي عاشتها البلاد ثحت حكم الفاطميين الأخير ، قد جعلت الإنسان المصرى ـ وهو المدى أجبر طويلاً وكثيراً على أن يقف الموقف السلبي إزاء أحداث السياسة في عاصمة بلاده ـ قد جعلته يفتح قلبه ويمنح عاطفته لذلك القائد الجديد ، صلاح الدين الأيوبي ، فإن بقايا الجنود الفاطمية ، وكل الفتات التي كانت تنتفع من بقاء هذه الخلافة التي غربت شمسها ، ما كان لما أن تستسلم لهذا المصير الذي صنعه بها وبمصالحها المادية والأدبية صلاح الدين. ومن هنا ، كان لابد من صراعات يخوضها النظام الأيوبي ضد بقايا النظام الأيوبي فد بقايا النظام الأمان .

• فصلاح المدين الأيسوبي ، المذى لم يكن يشق بجند الخليفة العاضد ، ولا يطمئن إليهم ، والذى كان يتحدث عنهم فيقول : ﴿ إِن أَجناد مصر كانوا في الدين ( يقصد المذهب ) خالفين ، وعلى عقيدتهم محالفين ، قد بدأ صراعه مع هؤلاء الجند وقادتهم حتى قبل وفاة الخليفة العاضد ، وذلك عندما أبطل إقطاعهم ، ليحل محلهم فيها جنود جيشه ، مما جعل قائد الجند السودانيين في بلاط العاضد ، والمسمى ﴿ مؤتمن الخلافة » يدبر مؤامرة للتخلص من صلاح الدين ، فكتب رسالة سرية بعث بها إلى الصليبيين يستدعيهم لمصر ، ولكن صلاح الدين ضبط الرسالة والرسول ، فقتل «مؤتمن الخلافة » في ٢٥ من ذى القعدة سنة ٢٥ هـ ( سنة

<sup>(</sup>١) كتاب الروضتين : جدا ، ص ٤١٠ .

١١٦٨م) ، فانفجرت ثورة جنوده السودان ، وكان تعدادهم خسين ألف جندى ، يسكنون حيا خاصًا بهم عند باب زويلة يسمى « المنصورة » ، فأرسل إليهم صلاح الدين بعض فرق جيشه بقيادة أخيه « شمس الدولة » ، الذي هزمهم في ٢٨ من ذي القعدة سنة ٢٥ ه. . ولم يكن بوسع الخليفة العاضد إلا أن يؤيد صلاح الدين في هذا ، وأن يتحدث إلى شمس الدولة فيقول له : « أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة ويقول : « دونكم والعبيد الكلاب ، أخرجوهم من بلادكم ! » (١).

وعندما هزم الجند السودان ، فر من نجا منهم من القتل إلى أطراف الصعيد ، وهدم صلاح الدين منازهم ، وحرثها ، وحوّل مكانها إلى منتزه ! وأنشد عهاد الدين الكاتب لصلاح الدين ، في هذه المعركة قصيدة قال فيها :

مسؤتمن القسوم خسان حتسى غسالتسه من شره غسوائل (٢)

• ثم حدث أن تمرد رجل يدعى عباس بن شادى ، الذى زحف بأنصاره من بلدة « طود» إلى مدينة « قوص » ، وهناك أعلن تمرده وعصيانه ضد الدولة الجديدة. فأرسل إليه صلاح الدين الجنود التي هزمته وكسرت شوكة أنصاره (٣).

• ثم حدثت أحداث تلك المؤامرة وذلك التمرد الذى ارتبط فى تاريخ هذه الفترة باسم الشاعر الكبير عمارة اليمنى ، الذى قبض عليه هو وشركاؤه فى يوم السبت ٢ من رمضان سنة ٥٦٩ هــ (سنة ١١٧٣م).

والحقيقة ، أن حديث هذا الشاعر وهذه المؤمراة ضد حكم صلاح الدين ، إنها يصور تصويرًا دقيقاً موقف تلك الفئة من بقايا الحكم الفاطمى ، الذين كانوا يعيشون على عطايا الفاطميين وهباتهم وإقطاعاتهم ، والمصير الذي وأجههم بالفقر والفاقة وعدم الثقة من جانب السلطان الجديد.

<sup>(</sup>١) المصدر السابق : جدا ، ص ٤٥١\_٤٥١ .

<sup>(</sup>٢) المصدر السابق: جدا، ص ٤٥٣ .

<sup>(</sup>٣) المصدر السابق: جدا ، ص ٢٠٢، ٢٠٢.

و إذا كانت مجموعة كبيرة من الذين صلبوا مع عمارة في هذه المؤامرة ، هم بالتأكيد ذوى ميبول شيعية أو متشيعين عاماً ، لا يرتاحون للسلطة السلفية والفكرية السنية التي سودها صلاح الدين ، مثل قاضي قضاة الفاطميين أبي القاسم هبة اللهبن عبد الله بن كامل ، ومثل عبد القوى ، داعي الدعاة ، ومثل العويس ، ناظر الديوان ، ومثل شبريا ، كاتب السر ، ومثل عبد الصمد ، الكاتب ، ونجاح الحمامي (١) ومثل عبد الصمد القشة ، أحد الأمراء الفاطميين ، فإننا لا نعتقد أنهم قد ثاروا وتآمروا لأسباب فكرية وعقائدية بحتة ، و إلا لما كان تأمرهم مع الصليبيين ولحسابهم ، ولقاء الهم من قبل الصليبيين إلى صلاح الدين ، كان يحضر إلى القاهرة وظاهر أمره أنه في مهام من قبل الصليبيين إلى صلاح الدين ، وباطن أمره اللقاء والاتفاق مع المتآمرين ، و إلا لما اعترف المتآمرون أنفسهم بعد وباطن أمره اللقاء والاتفاق مع المتآمرين ، و إلا لما اعترف المتآمرون أنفسهم بعد القبض عليهم «واعتلروا بكونهم قطعت أرزاقهم وأخلت أموالهم » (٢).

وأكثر من ذلك ، فإن عمارة اليمنى هذا لم يكن شيعيًا ، وإنها كان فقيها شافعيا ، مذهبه السلفى هو نفس مذهب صلاح الدين ، ولكنه كان شاعر القصر الفاطمى ، وهو يصور علاقته بهذا البلاط فى أشعار كثيرة ، منها تلك القصيدة التى يصف فيها حالته وموقفه بين الفاطميين وبين صلاح الدين ، فيقول :

تيمَّمتُ مصراً أطلب الجاه والغِنَى ملوكُ دعَوْا لى حُرمةَ صار نبتُها مـــــاهبُهم في الجودِ مــــــــــــ سُنَّةٍ

فِنلتُهما في ظللَ عيسشٍ مُنَسعٍ هشيهاً رعشه النائباتُ وما رُعِي وإنْ خالفوني في اغتقادِ التَّشَيُّعِ ا

ثم يمضى ليصور المصير الذي انتهت حالته إليه ، فيقول :

(١) البداية والنهاية : جـ ١٢ ، ص ٢٧٥ .

(٢)كتأب الروضتين : حدا ، ص ٥٦١ ، ٢٥ .

الله المسلاح الدين، والعدلُ شأله: المستُ لكم ضيفًا تسلافة أشهر فيا راعِيَ الإسلامِ كيفَ تَركُتُنا

مَن الحاكسمُ المُضخِي إلى فسأدعى ؟ أقسولُ لصدرى كلّما ضساق : وسُسعِ فريقى ضَياع: مِن عرايا ، وجوّعِ (١)؟!

فهى إذن الأموال والإقطاعات والأرزاق التى حركت هؤلاء الذين خرجوا على صلاح الدين . ولذلك ، فإنهم عندما يكاتبون الصليبين يحددون فى رسائلهم الطوائف والفئات التى ستقف ضد صلاح الدين ، وهم : حاشية القصر ، وجميع الجند السابقين ، وطائفة السودان ، وجموع الأرمن ، وجميع الإسماعيلية (الشيعة)(٢).

ويبدو أن معظم هذه الفئات ، ونموذج لها عيارة اليمنى ، قد حاولت أن تصل حبال حياتها بالنظام الجديد ، وأن تربط عجلتها بيبت ماله وإقطاعاته ، ولكن صلاح الديس وجنده ، لا الذين ذاقوا حلاوة ملك الديسار المصرية ، وخافوا على فوت ذلك منهم لا (٣) ، لم يكونوا على استعداد لشيء من هذا القبيل . فلقد مدح عيارة اليمني كلاً من صلاح المدين الأيوبي ، ووالده نجم الديس ، وطالما أشاد بإنقاذهما مصر من الفوضي ومن الصليبين . بل لقد قال الكثير من الشعر الرائع في مدح انتصارات صلاح الدين على الأسطول الصليبي ، الذي غزا دمياط في سنة ٥٦٥ هـــ (سنة ١٦٩ م) . ونحن نجده يحث صلاح الدين على غزو بيت المقددس ، بعد أن تمكن من فتح أحد حصون الفرنج في فلسطين ، فيقول بيت المقدس ، بعد أن تمكن من فتح أحد حصون الفرنج في فلسطين ، فيقول بيت المقددس ، بعد أن تمكن من فتح أحد حصون الفرنج في فلسطين ، فيقول بيت المقددس ، بعد أن تمكن من فتح أحد حصون الفرنج في فلسطين ، فيقول

<sup>(</sup>١) المصدر السابق: جـ١، ص ١٨٥.

<sup>(</sup>٢) المصدر السابق: جدا ، ص ١٤٥.

<sup>(</sup>٣) الصدر السابق : جدا ، ص ٢٠١،

وهيّخت للبينت المُقلّس لوعةً هُوَ البينتُ ، إن تَفْتَحُه ، واللهُ فاعِلْ

يطسولُ بها منه إليك التشوقيُ فسريبًا، وإلاَّ رائدٌ ومطرقُ فَمَا بَعْدَهُ مِابٌ مِنَ الشَّامَ مُغْلِقُ (١)

فالمال إذن ، والإقطاعات الملغاة ، هي التي دفعته ، كما دفعت زملاءه إلى هذا الموقف المخزى ، اللذي مدوا فيه أيديهم للتحالف مع " الفرنج " ضد صلاح الدين.

كها أن هذا الشاعر قد ساءته فعال أمراء صلاح الدين بسكان القصر الفاطمي، وحالة البؤس والمذلة التي وصل إليها أولئك الذيبن بقوا من نسلهم ، وكيف عزلت نساؤهم عن رجالهم لينقطع هذا النسل أ فصور ذلك في القصيدة التي كانت من مبررات إعدامه ، عندما قال:

وما عسَى كمانتِ الإفرنج فاعلة ف نسملِ آلِ أميرِ المؤمنينَ عَلى ١٢

هل كان في الأمر شي الخيرُ فِسْمةِ ما مَلَكُتُموا بينَ حُكْم السَّبي والنَّفَل (٢) ٢٢

ولقد صور أبو شامة حال عمارة اليمني هذا أيام صلاح الدين تصويراً دقيقاً ، عندما قال إنه " كان مستشعراً من " الغنز" ، وهم أيضاً منه ، لأنه كان من أتباع الدولة المصرية \_ ( الفاطميـة ) \_ وممن انتفع بها واختـل أمره بعدها ، فلـم تصف القلوب بعضها لبعض . وصار يظهر في فلتات لسانه ، في نظمه ونثره، ما يقتضي التحرز منه و إبعاده ، وهمو يرى ذلك منهم فيزداد فسمادنية . . وقمال في كتاب (الوزراء المصرية) ( عن الفاطميين) : ذكر الله أيامهم بمحمد لا يكل نشاطه . ولا يطوى بساطه ، فقد وجدت فقدهم ، وهنت بعدهم ، (٣).

<sup>(</sup>١) المصدر السابق: جدا، ص ٤٩٢.

<sup>(</sup>٢) خطط المقريزي : جـ ١ ، ص ٤٩٥ .

<sup>(</sup>٣) كتاب الروضتين : جدا ، ص ٥٦٦ ، ٥٦٧ .

• وفي سنة ٥٧٠ هـ. (سنة ١١٧٤م) ، تجمعت الجند السودانية الذين نجوا من معركة القاهرة سنة ٥٦٤ هـ ، ولملموا شملهم وأعلنوا الثورة في « أسوان» بقيادة زعيمهم الجديد المسمى « بالكنز» ، الذي كنان محكم مدينة أسوان ، ولكن الدائرة قد دارات عليهم مرة أخرى وأخيرة في المعركة التي انتصرت فيها قوات صلاح الدين ضدهم في ٧ من صفر من العام نفسه بموقعة « قوص» (١).

## المدارس السلفية

وكما اجتهد صلاح الدين في القضاء على بقايا الجند والأمراء الفاطمين ، كذلك عمل لملء الفراغ الفكرى الذي تخلف عن ذهاب حكمهم ، فكانت حركة التصوف التي شجعتها الدولة الجديدة كإسهام في سد الفراغ الفكرى ، الذي قام بعد زوال خلافة عقائدية . ولكننا نعتقد أن هذا لم يكن الجهد المنظم الذي بذله الأيوبيون لسد هذا الفراغ ، وإنها كان الجهد المنظم في هذا الميدان هو ذلك الاهتهام غير العادى ، والعمل الدءوب والبناء والمثمر الذي بذلوه في فتح العديد من المدارس السنية السلفية ، كي تعيد صياغة أيديولوجية المجتمع ، وتحل محل الأزهر الشيعى ودار الحكمة وأجهزة الدعوة والدعاة التي عرفها الفاطميون .

وعندما تولى صلاح الدين زمام الأمور ، لم يكن بالقاهرة مدرسة سنية واحدة ، بل لم يكن بالقاهرة مدرسة سنية واحدة ، بل لم يكسن بالدولة المصرية سوى صدرسة سنية واحدة في الإسكندرية ، أقامها الوزير \* ابن السلار ، سنة ٢٤٥ هــ (سنة ١١٥١م) .

والذين يقرءون تاريخ دخول الأيوبين إلى مصر ، يلاحظون أن التيار السنى السلفى كان على الصوت في مدينة الإسكندرية عند دخولهم إلى البلاد ، ولعل صلاح الدين قد لاحظ أثر المدرسة السنية التي كانت قائمة في الإسكندرية ، والتي كان يرعاها أحد أئمة الحديث : الحافظ السلفى يومئذ حيث كان لها أثرها في هذا

<sup>(</sup>١) المصدر السابق: جدا، ص ٦٠١، ٦٠١.

الموضوع. فنحن نجد أسد الدين شيركوه ، يكتب الله أهمل الإسكندرية يستنجدهم على شاور لأجل إدخاله الفرنج الله دار الإسلام ، وتضييعه أموال بيت مال المسلمين الألم. كما نجد صلاح الدين ، الذي حوصر بجيشه داخل الإسكندرية ثلاثة أشهر ، في جولتهم الأولى بمصر، وقبل أن يستقر بهم المقام ، نجده عندما يغادرها إلى الشام قد الستحلف شاورًا الأهلها بألا يعرض لهم بسوء الكن شاورا ينقض هذا الاتفاق ، فلقد قبض اعلى ابن مصال وجاعة عن أعان صلاح الدين ، وضيق عليهم ، وتتبع أهل الإسكندرية الا . فيتحدث صلاح أعان صلاح الدين إلى ملك الفرنج الطرف الشالث في المعاهدة في ذلك ، فيبعث ملك الدين إلى شاور يلزمه المعمن أخرى في ألا يعرض الأحد عن لجأ إلى أسد الدين أو صلاح الدين الحدادين الملاح الدين الملاح الملاح الملاح الملاح الملاح الملاح الدين الملاح الدين الملاح الدين الملاح الدين الملاح الدين الملاح الملاح الدين الملاح الدين الملاح الملاح الملاح الملاح الدين الملاح الملا

ولا بد أن تكون هذه الآثار السياسية ، ذات الصلة الوثيقة بالبيئة الفكرية التى خلفتها هذه المدرسة السنية ، في مقدمة الحوافز التى جعلت صلاح الدين ، وكل سلاطين الأيوبيين من بعده يركزون جهدهم في ميدان الفكر على إنشاء المدارس السلفية السنية التي بلغت في عهدهم ، في القاهرة ، خمس عشرة مدرسة . هي :

١ ــ المدرسة الناصرية : وهي التي أنشئت بجانب ضريبح الإمام الشافعي في
 سنة ٢٦٦ هـــ (سنة ١١٧٠م) لتدريس الفقه الشافعي (٣) .

٢ - المدرسة القمحية : وهي التي أقيمت سنة ٥٦٦ ـ ( سنة ١١٧٠ م) في دار الغزل ، وسميت بدلك نسبة للقمح الذي كان ينفق عليها من ضيعة أوقفت لها بالفيوم (١).

<sup>(</sup>١) كتاب الروضتين: جدا ، ص ٤٣٦

<sup>(</sup>٢) الصدر السابق: جدا ، ص ٤٢٨ .

<sup>(</sup>٣) المصدر السابق : جدا، ص ٤٨٦ . والقاهرة : تاريخها وآثارها ، وبسيرة القاهرة : ص ٢٥٤ .

<sup>(</sup>٤) كتأب الروضتين : جدا ، ص ٤٨٦ . وسيرة القاهرة : ص ٢٥٤ .

- ٣ ـ المدرسة القطبية : وهي التي أنشئت سنة ٥٧٠ هـــ ( سنة ١٧٤ م ).
- ٤ ــ مدرسة ابن الأرسوفي : والتي أنشئت في سنة ٧٠٠ هـــ ( سنة ١٧٤ م).
- مدرمة السيوفية: أو مدرسة سيف الدين ، ولقد بنيت لـلأحناف ،
   وكانت بجوار الحسين ، حول قصر المأمون القديم (١) ولقد أنشئت سنة ٧٧٦ هـ..
   (سنة ١١٧٦م) .
- ٢ ـ المدرسة الفضيلية : وهى التسى شيدها القاضى الفاضل سنة ٥٨٠ هــ
   (سنة ١١٨٤م) ، للشافعية والمالكية .
  - ٧ ـ مدرسة أشكشية : وهي التي أقيمت سنة ٥٩٢ هــ ( سنة ١١٩٥ م) .
  - ٨ ـ المدرسة الغزنوية : وهي التي أقيمت سنة ٥٩٢ هـ ـ ( سنة ١١٩٥ م).
- ٩ ــ المدرسة العادلية: نسبة للسلطان العادل الأول سيف الدين ، والتي أنشئت بعد سنة ٥٩٥ هــ (سنة ١١٩٨م).
- ۱۰ ــ المدرسة الشريفية : نسبة لقاضى العسكر الشريف شمس الدين الأرموى ، الله درس فيها ، كها درس في المدرسة الناصرية ، وهى التي أنشئت سنة ٢١٢هـــ (سنة ١٢١٥م) .
- ۱۱ ــ المدرسة الكاملية ، أو دار الحديث : وكانت تقع في منطقة بين القصرين، ولقد أنشئت سنة ٦٢٢ هــ (سنة ١٢٢٤م) (٢).
  - ١٢ ــ المدرسة الفخرية : وهي التي أنشئت سنة ٦٢٢ هــ ( سنة ١٢٢٤م).
  - ١٣ ـ المدرسة الصيرمية : وهي التي أنشئت سنة ٦٣٦ هــ ( سنة ١٢٣٨ م).
  - ١٤ ـ المدرسة الفايزية : وهي التي أنشئت سنة ٦٣٦ هـ ـ ( سنة ١٣٣٨ م).

<sup>(</sup>١) سيرة القاهرة: ص ١٦٤ ، ٢٥٤ .

<sup>(</sup>٢) المصدر السابق: ص ٢٥٤ . والقاهرة: تاريخها وآثارها.

١٥ ــ المدرسة الصالحية: نسبة للملك الصالح، وهي التي أنشأها بين القصرين سنة ٦٣٩ هــ (سنة ١٢٤١م) (١).

والأمر الذي يعطى المزيد من الأهمية لهذه المدارس التي أقامها الأيوبيون ، أن كل واحدة منها إنها كانت موسسة علمية كبيرة ، لها من الإمكانات الفكرية والمادية ما يتيح لها أن تؤدى دورًا هامًّا في الحياة الفكرية للبلاد . وحتى نعلم كيف كان لمدرسة الإسكندرية ، التي أشرنا إليها ، ذلك الأثر الذي أشرنا إلى بعضه ، ونعلم كذلك تلك الآثار التي أحدثتها هده المدارس الأيوبية ، يكفى أن نعلم أن ابن جبير عندما زار مصر في سنة ٨٧٥ هـ (سنة ١١٨٣م) ، وجد العمل لا يزال جاريًا في بناء المدرسة الناصرية التي بدأ إنشاؤها في سنة ١١٧٠م . ووصف ضخامتها ، فقال : إنها لا مدرسة لم يعمر بهذه البلاد مثلها ، لا أوسع مساحة ، ولا أحفل بناء . يخيل لمن يتطوف عليها أنها بلد مستقل بدأته ، وبإزائها الحام ، ولا أحفل بناء . يخيل لمن يتطوف عليها أنها بلد مستقل بدأته ، وبإزائها الحام ، للى غير ذلك من مرافقها ، والبناء فيها حتى الساعة ، والنفقة عليها لا تحصى . . تجم الدين الخبوشاني . . وصلاح الدين يسمح له بذلك كله ، ويقول : زد احتفالاً وتأنقا ، وعلينا القيام بمؤنة ذلك كله ! ه (٢) .

### إقطاعات الأجناد

عندما بعث الخليفة الفاطمى العاضد إلى نور الدين فى سنة ١٦٥ هـ برسالته التى ضمت خصلات من شعور نسائه ، والتى دعاه فيها إلى إيفاد جيشه لحماية مصر من الصليبين ، وعده فى هذه الرسالة بأن يقطعه \* ثلث بلاد مصر ، وأن يكون أسد الدين شيركوه مقياً عنده (عند العاضد بمصر) فى عسكره ، وإقطاعهم عليه خارجًا عن الثلث الذي لنور الدين \* (٣). وبعد أن حضر

121

<sup>(</sup>١) سيرة القاهرة : ص ٢٥٤ ، والقاهرة : تاريخها وآثارها .

<sup>(</sup>٢) رحلة أبن جبير : ص ٠٠٠ .

<sup>(</sup>٣)كتاب الروضتين : حدا ، ص ٣٩١

أسدالدين ، وتولى الوزارة ، وحمل لقب الملك المنصور أمير الجيوش اقطع البلاد العساكر التي قدمت معه (١) . وهذا الإقطاع ، الذي صير مصر بأرضها ونواحيها وقفًا على هؤلاء الأجناد ، هو الذي جعل هولاء الجنود اللين ذاقوا حلاوة ملك الديار المصرية ، وخافوا على فوت ذلك منهم الاسمالية في البلاد . ودونيا دخول في أبحاث التي قامت في طريق انفراد الأيوبيين بالسلطة في البلاد . ودونيا دخول في أبحاث طويلة ومعقدة عن مدلول كلمة الإقطاع العند عالجوا هذا الفحرين العرب الذين كتبوا في الأموال والخراج ، وعند الفقهاء الذين عالجوا هذا الفرب من ضروب الملاقة بين صاحب الإقطاع وبين اللين يفلحون الأرض التي أقطمت له ، وعند المؤرخين العرب المسلمين الذين أرخوا ، عرضًا ، لهذا النظام ، دون أن ندخل في كل ذلك ، وابد يكفينا أن نشير إلى أن السلطان قد كان عندما يقطع ناحية من النواحي لأمير من أمراء الجند ، فإن هذا الأمير إنها كان يحارب ويجوز الانتصارات ، ويتجهز هو وجنوده ، من ربع هذه الناحية التي صارت إقطاعًا له ، وأن كفاءت كجندي مقاتل إنها كانت شرطًا لتمتعه بربع هذه الأرض وذلك الإقطاع . ومن هنا ، كان هذا النظام نظامًا إقطاعيًا يقوم على أن ربع الأرض وذلك الإقطاع . ومن هنا ، كان عت إمرته من الجنود .

ولقد حدثنا المقريزى في خططه عن ذلك التغيير الأساسى والمهم المدى أحدثته الدوله الأيوبية في شكل الاستغلال الزراعى . فبعد أن كان نظام القبالات والالتزام، هو السائد، أقطع صلاح الدين جنوده أرض مصر في نظير الحرب التي خاضوها ، والتي في الانتظار أن يخوضوها ضد الصليبين ، بحدثنا المقريزى عن ذلك التغيير اللى ساد مصر حتى عصره هو ، عندما يقول : « اعلم أنه لم يكن في الدولة الفاطمية بديار مصر ، ولا فيها مضى قبلها من دول أمراء مصر ، لعساكر البلاد إقطاعات بمعنى ما عليه الحال اليوم في أجناد الدولة التركية ، وإنها كانت

<sup>(</sup>١) المصدر السابق: جد١ ، ص ٢٠٤ ،

<sup>(</sup>٢) المصدر السابق : جدًا 4 ص ٦٠٠ .

البلاد تضمن بقبالات معروفة لمن شاء من الأمراء والأجناد والوجوه وأهل النواحى من العرب والقبط وغيرهم (١) أى أنه بعد أن كان شكل الاستغلال الإقطاعى للأرض هو نظام الالتزام الذى يمكن لمن دفع الضيان أن يحصل على امتيازه من الأمراء والأجناد والوجوه وأهل النواحى من العرب والقبط وغيرهم ، انحصر حق الاستغلال الإقطاعي للأرض ، أساسًا ، في اعساكر البلاد ، وذلك بسبب الدور المتزايد الذي أصبح للجيش الأيوبي الذي أقام الدولة ، وأزال أعداءها ، وكان يسهر على حمايتها ، وأكثر من ذلك ، الذي فرضت الأخطار الصليبية على المجتمع أن يمنحه كل شيء بها في ذلك أرض البلاد في صورة إقطاعات للأجناد .

ولذلك ، فإن هذا الموقف الأيوبي من قضية الأرض وأشكال استغلالها ، لم يكن بمدعًا ، وإنها كان استجابة للموجة العسكرية التي ركبت المد في الشرق العربي الإسلامي ، والتي لم يكن الأيوبيون إلا أحد آثارها .

بل إننا نجد أنه فى نفس العام (سنة ٥٦٤هـ) ، الذى أقطع فيه أسد الدين شيركوه البلاد للعساكر التى قدمت معه ، نجد الصليبين عندما عزموا على تحريك جيشهم الذى هزمه أسد الدين الله مصر ، أحضر ملكهم « وزيره ، وأموه بإقطاع بلاد مصر لخيالته ( فرسانه ) ، وفرق قراها على أجناده! » . ويعلق المؤرخ أبو شامة على ذلك بقوله : « وكان ، لعنه الله ، لما دخل ديار مصر قد أقام من أصحابه من كتب له أسهاء قرى مصر جميعها ، وتعرف له خبر ارتفاعها (دخلها)»(٢).

فنحن إذن أمام طابع العصر ، ونظام ساد فيه ، هو النظام الأقطاعى ، وبإزاء شكل من أشكال الاستغلال الذي عرفه هذا النظام ، فرضته ظروف الحرب وسيادة الجيوش ، هو إقطاعات الأجناد . ولقد ظل هذا النظام سائدًا حتى عدله من ناحية الشكل التشريع المعروف لا بالروك الناصري، ، والذي قسمت فيه أرض

<sup>(</sup>١) خطط المقريزي: جدا، ص ٨٥.

<sup>(</sup>٢) كتاب الروضتين : جـ ١ ، ص ٢٣١ .

مصر إلى أربعة وعشرين قيراطًا ، للسلطان أربعة وللأجناد ( رؤساء الجند ) عشرة ، وللدولة عشرة ( رؤساء الجند ) عشرة ،

أما المظاهر التطبيقية التى تضع يدنا على الصورة التى كانت عليها أرض مصر ونواحيها في ذلك الحين ، وفي ظل هذا النظام ، فإننا نستطبع أن نقدم العديد منها ، في هذه النقاط :

فلقد كانت مصر تدفع مبلغًا من المال سنويًا لأمير مكة كرسوم على الحجاج المصريين ـ \* مكس الحجج \* ـ إلى جانب إقطاعات أقطعها صلاح الدين لهذا الأمير في صعيد مصر ، وجهات أخرى من الدولة الأيوبية (٢).

• وفى سنة ٥٦٦ هـ (سنة ١١٧٠م) ، طلب شمس الدولة تورانشاه أخو صلاح المدين ... ، طلب منه زيادة إقطاعه ، لأنه كان جوادًا كريبًا ، وكان إقطاعه لا يكفى ولا لا يقوم بفتوته ولا ينهض بمروءته! » ، فأعطاه صلاح الدين فوق ما كان له لا ربع الكامل بالقاهرة ، و لا بوش » (من أعال بنى سويف) و لا أعال الجيزة» (قراها) و لا سمنود» ، وغيرها (٣).

• وعندما زار ابن جبير مدن صلاح الدين وثغوره في الشام ، وجد طابع الحياة فيها وحياة أمرائها ، هو نفس طابع الحياة التي يجياها أمراء الإقطاع العرب الأندلسيون ، الذي كانوا يسمون بملوك الطوائف . فلقد قال عن أمراء " نصيبين " و « دارا» و « مسارديسن » و « دنيسر» و « رأس عين » : إنهم كملسوك الطسوائف بالأندلس ، « كلهم قد تحل بحلية تنسب إلى الدين ، فلا تسمع إلا ألقابًا هائلة ، وصفات لدى التحصيل غير طائلة ! » ، وأن ما عدا صلاح الدين ، فإنها هي «زعازيم ربح ، وشهادات يردها التجريح ! !» ( ) .

<sup>(</sup>١) فجر اليقظة القومية : ص ١٦٣ .

<sup>(</sup>٢) رحلة ابن جبير : ص ٦٩ .

<sup>(</sup>٣)كتاب الروضتين : جــ١ ، ص ٤٨٨ .

<sup>(</sup>٤)رحلة ابن جبير : ص ١٣ .

• ومن خلال بعض الأرقام التي نعشر عليها لدى المقريزى ، نجد أن مصر في سنة ٥٨٥ هـ. (سنة ١٨٩ م) قد قسمت إلى ٢٣ منطقة ووحدة اقتصادية ، في الموجه البحرى منها اثنتا عشرة منطقة يجمع منها ١٥١, ١٥١, ١٥١ ، ١ دينارًا ، وفي الوجه القبلي منها إحدى عشرة منطقة يجمع منها ٤٤١ ، ١٠١ ، ١ دينارًا . ثم نجده يذكر لنا كيف كانت في الميزانية على عهدهم أرقام كثيرة ، وبنود متعددة تذهب إلى الأجناد . فللأمراء والأجناد ٣٠٠ ، ١٥٨ دنائير، وللعربان (وهم جند وفرقة في الجيش ) ٢٩٦ ، ٤١٢ دينارًا ، وللكنائية (وهم جند وفرقة في الجيش ) ٢٩٦ ، ٢٩٥ دينارًا ، وللكنائية (وهم جند وفرقة في الجيش ) ٢٩٦ دينارًا ، وللغناة المرين ١٢٥ ، ١٢ دنائير ، وللغنراة دينارًا ، وللعماط وتنيس وغيرهم ١٢٠ ، ١٠ دينارًا ، وهكذا وهكذا .

## المكـــوس

على أن هذا النظام الذى وزعت به أرض مصر إقطاعات للأمراء والأجناد ، والذى تغير به شكل الاستغلال الإقطاعى فيها منذ حكمها الأيوبيون ، لا يعنى أن وحدة البلاد الإداوية والسياسية قد ضعفت عن ذى قبل ، بل إن الأمر ، فيها يتعلق بهذا الموضوع ، كان على العكس من ذلك تمامًا . فعلاوة على دور نهر النيل التاريخي والتقليدي في بناء وحدة مصر ، وتأكيد مركزيتها ، وتعميق هذه الوحدة وتلك المركزية ، نجد أن هذا التقسيم الإقطاعي الأيوبي للأرض قد أقطعها لأمراء الحرب والأجناد ، وهم لم يكونوا يعيشون في النواحي التي أقطعت لهم ، بل قد لا يكون أخلبهم ، لأوقات كثيرة ، موجودًا بمصر ، وإنها بالشام لملاقاة الصليبيين ، يكون أخلبهم ، لأوقات كثيرة ، موجودًا بمصر ، وإنها بالشام لملاقاة الصليبيين ، أو بالثغور طراستها ، أو باليمن يحكمها ، مثل شمس الدولة تورانشاه ، الذي ضاقت به إقطاعات ! أو فياننا إذا قارنا الوضع الجديد ، فيها يتعلق بالوحدة الإدارية للدولة ، بوضعها زمن فإننا إذا قارنا الوضع الجديد ، فيها يتعلق بالوحدة الإدارية للدولة ، بوضعها زمن الفاطميين ، وخصوصًا في مرحلة ضعفهم ، أيام كانت دوائر الالتزام تمنح لمن الفاطميين ، وخصوصًا في مرحلة ضعفهم ، أيام كانت دوائر الالتزام تمنح لمن يقيم فيها أحيانًا ، أو يباشر أعهالها غالبًا ، ولمن ينيب عنه من يتنظر عليها في كل

الأحبان ، فإننا نجد أن النظام الجديد قد قارب بين هذه الوحدات الاقتصادية (الإقطاعات) ، وزاد بذلك من الوحدة الإدارية والسياسية للبلاد.

ولعل وراء ذلك يقف السر فى إلغاء صلاح الدين الأيوبى للمكوس ، التى كانت بمثابة الضرائب الداخلية على التجارة العابرة بين الأقاليم والمدن المختلفة فى الدولة . ففى يوم الجمعة ٣ من صفر سنة ٦٧ هــ ( سنة ١١٧١م ) ، قرىء المنشور الخاص بإلغاء المكوس فى مصر ، والذى جاء فيه :

ق. . . ولما تقلدنا أمور البرعية ، رأينا المكوس الديوانية (الحكومية) بالقاهرة ومصر أولى ما نَقلناها من أن تكون لنا فى الدنيا إلى أن تكون لنا فى الآخرة ١١ . . وخرج أمرنا بكتب ونضعها ، فلا تبرفعها من بعد يد حاسب ولا قلم كاتب . . وخرج أمرنا بكتب هذا المنشور بمساعة أهل القاهرة ومصر ، وجميع التجار المترددين إليها ، وإلى ساحة المقسم (المقس) والمنية ، بأبواب المكوس ، صادرها وواردها ، فيرد التاجر ويسفر، ويغيب عن ماله ويحضر، ويقارض ويتجر ، برا وبحرا ، مركبا وظهرا ، سرا وجهرا ، لا يحل ما شده ، ولا يحاول ما عنده ، ولا يكشف ما ستره ، ولا يسأل عيا أورده وأصدره ، ولا يستوقف فى طريقه ، ولا يشرق بريقه ، ولا يؤخذ منه طعمة ، ولا يستباح له حرمة ، والذى اشتملت عليه المساعة فى السنة من العين (اللهب) مائة ألف دينار ه (١) .

وكانت المكسوس التي تجبى بمصر قبل ذلك المنشور كثيرة ومتعددة ، وشديدة الإرهاق للتجار والمواطنين . فابن جبير يحدثنا عن أن الحجاج المغاربة الماريس بمصر كان يدفع كل منهم ، برغم فقرهم الشديد ، سبعة دنائير ونصفا . كما أن الأمر قد بلغ إلى الحد الذي أخذت فيه المكوس على شرب ماء النيل . . فضلاً عما

 <sup>(</sup>١) كتاب الروضتين : جــ١ ، ص ٥٢٢ ، ٥٣٢ . والبداية والنهاية : جـ١٢ ، ص ٢٦٨ .
 ورحلة ابن جبير : ص ٥٥ .

سواه! » (١) . ولقد كانت الصناعات القائمة بمدينة مصر تدفع مكوسًا قيمتها ، ٠٠٠ دينار ، و « ما يستخرج بالأعال القبلية والبحرية مائة آلف دينار » ، فألغى صلاح الدين « جميع المكوس ، صادرها وواردها ، جليلها وحقيرها » (٦).

على أننا يجب ألا نرتب على هذا الحدث الاقتصادي والإداري المهم ، الذي يتمثل في إلغاء المكوس ، أي آثار اجتماعية قد يتصورها البعض . فلم يكن خلف هذا القرار تخفيف حقيقي في الأعباء عن كاهل الشعب المصرى . ذلك ، أن المكوس إنها كانت تجبى وتجمع من قبل ، ليتحمل عبثها أساسًا التجار والملتزمون الذين ينقلون السلع والمحاصيل من إقليم إلى إقليم . أما الآن ، فلقد حل الأمراء والأجناد محل هـؤلاء الملتزمين ، وصار كمل السريع والفائض الناتـج مـن هـذه الإقطاعات والنواحي خالصاً لهم ولنفقاتهم من دون الناس . وأكثر من ذلك ، فإننا عندما نقارن المفروض على الأقاليم المصرية في عهد صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٥ هـ ، حسب أرقام المقريزي ، بهاكنان مفروضاً على مصر زمن الخليفة الفاطمي المستنصر ، نجد المبلغين يكادان يتساويان . فإذا أضفنا إلى ذلك حقيقة هامة ذكرها ابن جبير عن الأموال الكثيرة التي يجمعها عيال المواني في الإسكندرية، وفي مداخل المدن وعند مراسى السفن ، باسم الزكاة ، غير مفرقين في ذلك بين المال الذي مر عليه عام ، وبالتالي استحقت عليه الزكاة ، وبين الذي لم يحل عليه الحول ، ولا مفرقين بين المال اللذي بلغ النصاب والذي لم يبلغ ، وكيف شمل ذلك « الحجاج الذين لا يحملون سوى زادهم » ، وكيف « يعترضون الغرباء المنقطعين عمن تجب الزكاة له لا عليه ١١٠ كما تحدث عن ١ التعريض لمراكب المسافرين ، وتكشفها ، والبحث عنها ، وإدخال الأيدي إلى أوساط التجار ، فحصاً عما تأبطوه أو احتضنوه من دراهم أو دنانير . . كل ذلك برسم الزكاة ، دون مراعاة لمحلها ، أو ما يبدرك النصاب منها . . وربها ألنزموهم الأيهان على ما

<sup>(</sup>١) رحلة ابن جبير : ص ٥٥ .

<sup>(</sup>٢) كتاب الروضتين : جـــا ، ص ٤٤٣ ، ٤٥٦ .

بأيديهم، وهل عندهم غير ذلك ؟! ويحضرون كتاب الله العزيز يقع اليمين عليه ، فيقف الحجماح بين أيدى هؤلاء المتناولين لها مواقف خرى ومهانة تذكرهم أيام المكوس ! ». كما يتحدث عن « خروج شرذمة من أعوان الزكاة وفي أيديهم المسال المطوال ذوات الأنصبة ، فيصعدون إلى المراكب استكشافاً لما فيها » ، فيتجسسون على كل شيء (١).

فإذا علمنا أن ضريبة الزكاة هذه قد حلت محل المكوس ، وإذا علمنا كذلك أن النشاط التجارى قد زاد بمصر فى تلك الفترة بسبب تعطل طريق التجارة العالمية المار بالنسام لوجود الأخطار الحربية هناك على القوافل لاشتعال الحرب مع المار بالنسام لوجود الأخطار الحربية هناك على القوافل لاشتعال الحرب مع الصليبيين ، أدركنا أن إلغاء المكوس، لم يكن بالقرار الذى رفع الشيء الكثير عن كاهل الناس حينئذ . ومن شم ، فإنه ليست هناك وجوه للشبه بينه وبين إلغاء المكوس فى أوربا بين الإمارات الإقطاعية عندما ساد الشعار البورجوازى : « دعه يعمل ، دعه يمر » ، على الرغم من تلك الصياغة التى صيغ بها منشور صلاح يعمل ، دعه يمر » ، على الرغم من تلك الصياغة التى صيغ بها منشور وبين الدين والتى توحى ، للوهلة الأولى ، بأوجه للشبه كثيرة بين أهداف المنشور وبين هذا الشعاد .

وهكذا ، نجد أن الخطر الصليبي المدمر ، الذي اجتاح المشرق العربي في ذلك التاريخ ، والذي كان سبباً في قيام الدولة الأسوبية في مصر ، التي أخذت على عاتقها مواجهته ، والتي بدلت في ذلك الكثير ، وسجلت في ميدانه الكثير من صفحات البطولة والفخار ، نجد أن هذا الخطر هو الذي كان وراء تلك التغيرات الاقتصادية التي حدثت في نظام استغلال الأرض المصرية ، كها كان وراء تلك لفكرية السلفية المحافظة التي سادت ذلك العصر من عصور حياة مصر القاهرة.

ولقد ظل هذا الخطر يؤدى هذا الدور. وعندما انضم إليه خطر التتار، والحلف

١) رحلة ابن جبير : ص ٤٤، ٥٩ ، ١٥ ، ٦٠ .

الذى قام بين التنار الوثنيين والغرب المسيحى الاستعارى ، تقدم الأمراء والأجناد ، حلة السيوف ، خطوة جديدة إلى الأمام ؛ فبدلاً من أن يكتفى زعيمهم « عز الدين أيبك التركيانى بمنصب القيم على السلطان الصبى ذى الثانى السنوات « الأشرف موسى » المذى أجلسوه على العرش « بعد شجرة المدر » نجده يخلع « الأشرف موسى » ويتزوج شجرة المدر ، ويتولى سلطنة البلاد سنة ، ١٢٥ م ... ( سنة ١٤٨ ه...) ، فتنشأ بللك دولة الماليك البحرية ، تمامًا كما صنع صلاح المدين الأيوبى عندما لم يكتف بأن يكون وزيراً للعاضد وقائداً للجيش في سنة ، ١١٧ م كانت في سنة ، ١٢٥ م كما كانت في سنة ، المعافى أن تكون السياسة والجندية في يد واحدة ، لا موزعة بين الخليفة أو السلطان وبين أمير الجيوش وقائد الأجناد .

#### \* \* \*

وهكذا ، أسهمت الأخطار الحربية الصليبية مع المشكلات الاقتصادية والاجتهاعية ، التي نشأت في المجتمع المصرى ، على عهد الفاطميين ، أسهمت كل هذه العوامل في إنهاء هذه الخلافة ذات الطابع العقلاني ، والتي مثل عصرها الحقبة الزمنية التي اكتملت فيها قسهات العروبة للمجتمع المصرى ، والتي عادت فيها لمصر تأثيراتها القيادية في المجتمع العربي ، عندما تحولت من « ولاية » إلى فيها لمصرة » للخلافة تتبعها « الولايات » و « الإمارات » . .

و إذا كانت مصر قد شهدت تغييرات هامة في الفكر والاقتصاد والاجتماع - خلال العهد الأيوبي ، غيرت من الطابع والقسات التي سادتها وميزتها في العهد الفاطمي ، إلا أن الشيء الذي لم يتغير فيها هوالدور القيادي الذي ظلت تمارسه ، على النطاقين العربي والإسلامي ، ضد الغزوة الصليبية والزحف المتترى وكل الأحطار التي أحدقت بالوطن العربي منذ ذلك التاريخ . .

لقد طويت صفحة حافلة من تاريخ مصر العربية . . ولكنها واصلت إمداد التاريخ العربي بالأحداث التي يسطر منها العديد والعديد من الصفحات .

# المهت أوار

- -ابن جبير: رحلة ابن جبير: (تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار). طبعة دار التحرير، القاهرة سنة ١٩٦٨م.
  - \_ابن خلدون : (المقدمة) طبعة القاهرة ، سنة ١٩٠٤ م.
  - ابن كثير : ( البداية والنهاية في التاريخ ) . طبعة القاهرة .
- \_أبو شامة : (شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين : النورية والصلاحية ) . تحقيق : د . محمد حلمي محمد أحد . طبعة القاهرة ، سنة ١٩٦٢م .
- \_ جورج كيرك : ( موجيز تاريخ الشرق الأوسيط ) . ترجمة : عمر الإسكندرى . طبعة الألف كتاب ، القاهرة .
- \_ستانلي لينبول : (سيرة القاهرة ) . ترجمة : د. حسن إبراهيم حسن ، ود. على إبراهيم حسن ، ود. على إبراهيم حسن ، وإدوارد حليم . طبعة القاهرة ، سنة ١٩٥٠م.
- \_ عبد الرحمن زكى : ( القاهـرة : تاريخهـا وآثارها ( ٩٦٩ ـــ ١٨٢٥ م) من جــوهر القائد إلى الجبرتى المؤرخ . طبعة القاهرة ، سنة ١٩٦٦م.
- ـد. عبد المنعم ماجد : ( السجلات المستنصرية ) " دراسة وتحقيق " طبعة القاهرة ١٩٥٤م
- \_ قيليب حتى \_ وآخرون : (تاريخ العرب) « مطول » . طبعة بيروت ، سنة ١٩٥٣م.

- -القلقشندي: (صبح الأعشى) . طبعة القاهرة .
  - المقريزي: ( خطط المقريزي ) . طبعة بولاق.
- (اتعاظ الحنفا بأخبار الأثمة الفاطميين الخلفا) . تحقيق : د. جمال الديس المشيال . طبعة القاهرة ، سنة ١٩٦٧م .
- (إغاثة الأمة بكشف الغمة ) . . تحقيق : د . محمد مصطفى زيادة ، ود . جمال الدين الشيال . طبعة القاهرة ، سنة ١٩٤٠م .
- محمد عبد الله عنان : ( الحاكم بأمر الله ، وأسرار الدعوة الفاطمية ) . طبعة القاهرة ، سنة ١٩٥٩م.
- د. محمد ضياء الدين الريس: (الخراج والنظم المالية للدولة الفاطمية). طبعة القاهرة ، سنة ١٩٥٩م.
  - د. محمد عمارة: ( فجر اليقظة القومية ) . طبعة القاهرة ، سنة ١٩٦٧ .
- اليافعي ( عبد الله بن أسعد ) : ( مرآة الجنبان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان ) . طبعة حيدر آباد ، بالهند ، سنة ١٣٣٩ هـ .

# القهيرس

٥	حقلمة:
٩	الفصل الأول: المغزى الحضاري لنشأة القاهرة
	القاهرة فلسفة المكان فلسفة المكان
۱۷	الفصل الثاني : مصر هل فتحت أبوابها لكل الغزاة؟ ا
	تساؤل يحير الكثيرين
4 9	الفصل الثالث: الموجه المشرق لمصر الفاطمية
	أزهى العصور المصريةأربس العصور المصرية
	ألغنى والترف
ξO	الفصل الرابع: الحياة الفكرية في مصر الفاطمية
٤٦	الحياة الفكرية
٦٢	الفصل الخامس: ﴿ الدولة؛ الفاطمية في مصر
٦٤	جهاز الدولة الفاطمية
	الفصل السادس: عن الحاكم بأمر الله عن الحاكم ب
	قسهات هامة وطريفة بار بار والمريفة والمريفة والمراد والمريفة والمراد وال
	الفصل السابع: عن المجاعات والحروب والمظالم الاجتماعية
۸۸	الوجه الآخر للعملةان
	الفصل الثامن: مصر تقاومه
	تمردات وانتقاضات من من المستقردات وانتقاضات وانتقاض وانتقاضات و
	الفصل التاسع: أسباب الاضمحلال٩
	غروب شمس الفاطميين
	الْمُصْلُ الْعَاشَرُ: سُنِّيةَ الْأَيْوبِيين تُمْحُو آثار الفاطميين
	أشواك على طريق صلاح الدين
	المصادر:ا
	•

رقم الإيداع : ٢٧٧٨ / ٩٧ الترقيم الدولي : 6 - 0373 - 97 - 977 X.S.B.N.

## مطابع الشروقي

الفاهرة : ۸ شارع سيبويه المصرى .. ت: ١٠٢٣٩٩٩ .. مَاكَس: ١٠٢٧٩٩٩ (١٠) يروت : حن.ب: ١٠١٨١٧٧٩٥ : ١٥٨١٧٢١٣ .. مَاكَف : ١٥٨٥٧٩ .. مَاكِس : ١١٧٧٩٥ (١٠)

## عندما استخت مِصْحَاتِ السَّلَامَةِ ا

- بالفتح الإسلامي كان عيد ميلاد مصر الإسلامية . .
- وبالعروبة والإسلام استردت عافيتها ، بعد القهر الحضاري البيزنطي . .
- ومن هنا تأتى أهمية الدراسة للعصر الذى اكتملت فيه لمصر قسيات العروبة ومؤهبلات الإبداع في حضارة الإنسلام . . عصر الإحياء الإسلامي لمصر . .
   والإحياء المصرى للعروبة والإسلام ! . .
  - وهذه للهمة يصدر هذا الكتانب!.

To: www.al-mostafa.com